١٠٥٨
دار م. النحاس
كبير
1058
HARLEQUIN

لمسة حنان

بني جوردن

www.elromancia.com
مترجمة

لمسة حنان

بني جوردن

ألجأ الياس غراي فيليبس إلى استخدام سارة لتكون مربية لإبنه. ذلك أنها وحدها التي استطاعت أن تمدّ يدها بالتعزية والحنان إلى الصبي التعس. ولكن غراي لم يكن يخفي حقيقة استيائه من وجودها في منزله وحياته.

وإنشاء علاقة مودة بين الأب وابنه، كانت مهمة شبه مستحيلة، وكذلك إخفاء عواطفها المتنامية لرجل قد سبق وتخلّى عن الحب والثقة ببنات جنسها.

«ألا تكلفين نفسك عناء القاء تحية الوداع يا سارة؟»

كان في صوته الكثير من التهكم، الكثير من الإنتقاد غير المتوقع، والإدانة لتصرفها هذا.

وأجابت بعصبية: «إنني... إنني لم أشأ أن أزعجك.»

فقال: «هذا صحيح. إنني متأكد من قصدك هذا.»

كان ينظر إليها متأملاً. ولسبب ما، استحال ارتباكها إلى شعور خانق بوجوده قربها، وكأن في ذلك ما مسّ من إحساسها وتراً جعل جسدها يهتز تجاوباً مع هذا الوجود.

قال برقة، ونظراته ما تزال متعلقة بها: «من المؤسف أنك لم تفكري في ذلك من قبل. أليس كذلك؟»

بيني جوردن

كانت بيني جوردن تعاني من المشاكل في المدرسة على الدوام، بسبب عدم قدرتها على التوقف عن أحلام اليقظة، خاصة أثناء دروس اللغة الفرنسية. وفي سنيّ المراهقة، أصبحت قارئة نهمة للروايات العاطفية. ولكن، لم يخطر في بالها أن تحاول الكتابة، إلى أن ازداد نضوجها مع الأيام. وهي تقول: «إنّ محاولاتي الأولى في الكتابة، لم تكن بالمشرّفة.» وتمتد بها الذكريات وهي تتابع: «ولكنني ثابرت على ذلك، إلى أن اكتملت عندي أول رواية مخطوطة.» واستجمعت شجاعتها ثم أرسلتها إلى الناشر وهي مقتنعة بأن روايتها هذه ستعود إليها مرفوضة، ولكن هذا لم يحدث. أما بعد ذلك، فقد أصبح تاريخاً! وبيني متزوجة الآن وتعيش في تشيشاير.

وأفضل روايات بيني جوردن هي «مسرحية السلطة.» التي سرعان ما أصبحت أفضل مبيعات دار نشر «نيويورك تايمز»، تلتها الروايات الناجحة التالية «الفضة» و«السنوات المختبئة» و«الظلال المتخلفة.»

عبير ١٠٥٨

Abir 1058

لمسة حنان

بيني جوردن

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

الفصل الأول

جلست سارة مستندة، بكل راحة، إلى جذع شجرة الصفصاف، وأغمضت عينيها لتروح في إغفاءة حالمة على خرير الجدول الرقراق، متجاهلة بشدة، ذلك الشعور بالذنب الذي كان يحاول أن يذكّرها بوجوب التفكير في مستقبلها، خصوصاً في النقطة الهامة التي تشغل بالها، وهي أن عدم صمود شخصيتها، وبالتالي عدم قدرتها على منع نفسها من التورّط عاطفياً مع تلاميذها، كل هذا يهدّد مستقبلها في التعليم، بشكل خطير.

وفكرت في ما سبق وذكرتها به إبنة عمها هذا الصباح، من أن النوم قد يكون، أحياناً، مهدئاً لحالات الاكتئاب، محدثة نفسها بأن هذا الإرهاق والإستنزاف اللذين تملكاها، ما هما سوى نتيجة الإجهاد الذي يصحب، عادة، إنتهاء السنة الدراسية بحيث لم يعد في استطاعتها تحمل مسؤولياتها لتوجهها نحو طموحاتها التي كانت تخطّط لها أثناء دراستها الجامعية.

في ذلك الحين، كانت الأمور تبدو لها بسيطة للغاية، فهي ستحصل على شهادتها لتصبح معلمة، وستحاول التقدم في سلم الإرتقاء، ولو بالعمل في القطاع الخاص لفترة، قبل أن تقدّم طلباً لمركز ناظرة مدرسة، وسوف تصل إلى هدفها هذا قبل عيد ميلادها الثلاثين.

وها هي الآن، في السابعة والعشرين، تعترف مرغمة

بأنها اغفلت أهم توصية في مهنتها هذه وهي أن تحسب حساب تورّطها، عاطفياً، مع تلاميذها، فلا تهتم بهم إلى درجة تطغى على احتياجاتها الخاصة، وما سبق وخططته لمستقبلها، وحياتها كلها.

لقد شخّص طبيبها حالة التوتر والإجهاد، عقلياً وبدنياً، التي تملكتها في منتصف امتحانات نهاية الفصل الدراسي الأخير، بأنها إرهاق ناتج عن ضغط حياة العصر ونوع عملها ومسؤولياته الجمة.

ووافق رؤساؤها على هذا التشخيص، ولكن بعطف أقل، موضحين لها أن الذنب ذنبها لأنه لم يُطلب منها أن تأخذ على عاتقها مسؤولية إضافية وذلك بتنظيم النشاطات المدرسية لصبية في الثانية عشرة من أعمارهم، هم تلاميذها، وأن عليها أن تلوم نفسها فقط إذ تتبنى مشكلاتهم وتشاركهم معاناتهم قلبياً.

وحمل التفهم البالغ، حيث كانت تعمل، أولي الشأن على إجراء تبدلات سريعة بين المستخدمين، مما جعلها تتخلص بسرعة من ذلك الوهم، إزاء المشكلات التي نتجت عن تعاملها مع ذلك العدد الكبير من الأولاد والذين كان معظمهم من مستوى غير ملائم، مما جعل التعامل معهم صعباً جداً.

وكان على سارة أن تعترف بذلك ولكن اكثرهم كان من الممكن أن يتجاوبوا لو منحوا التشجيع والوقت..

تنهدت وهي تتذكر نصيحة طبيبها بأن تنسى كل شيء عن عملها ذاك، وتذهب إلى حيث تتمكن من الاسترخاء والاستلقاء في الشمس و...

ولكن هذا مستحيل، بطبيعة الحال، فإن المعلمين لا يمضون مدّة العطلة الصيفية من دون عمل، كما يعتقد اكثر الناس الغرباء عن هذه المهنة، ثم علمت بعد ذلك بأن مستقبلها في التعليم أصبح مهدداً حتى ولو لم يصدر الأمر رسمياً بإيقافها عن العمل، وكان هذا سبب مجيئها إلى منطقة «شروبشاير» لتمكث فترة ضيفة على ابنة عمها وزوجها في قريتها الهادئة، حيث طمأنتها إبنة عمها سالي بأنها ستجد كل ما تحتاجه من هدوء واسترخاء.

كان روس وسالي قد تزوجا منذ سنتين. وكان روس يعمل في شركة هندسية في لودلو، بينما كانت سالي تعمل في الرسم التخطيطي وذلك من مكتبها الصغير في منزلهما الجميل الذي كان من قبل منزلاً ريفياً في مزرعة.

وقد رحب الاثنان بسارة، ولكن عملهما، كان يعني ان تُترك سارة وحدها طيلة النهار، وكان هذا ما تحتاجه... أو على الأقل كانت هذه فكرة طبيبها.

وفعلاً، حين وصولها إلى منطقة شروبشاير منذ أسبوعين، ابتدأت مشكلات تلاميذها، والقلق الذي سبّب تورطها معهم. ابتدأ كل هذا يخف تأثيره على نفسها، ولكن، هذا الأمر سبب لها الشعور بالذنب، مذكراً إياها بأنهم ليسوا مثلها محظوظين بإبنة عم تعيش في منطقة ريفية شاعرية، لكي يهربوا إليها من حر الصيف اللاهب في المدينة غير المألوف في الأجواء الانكليزية.

كان التلفزيون، ومن خلال نشرة الأخبار، في المساء يعرض الصور الفوتوغرافية لحقول وحدائق عامة أدركها

الجفاف، وجداول جفت فيها المياه، وشوارع ساح الإسفلت فيها، هذا إلى سماء صافية زرقاء.

ونبهتها حركة في الجدول، ففتحت عينيها لترى سمكة تقفز من المياه لتلاحق الذباب. كانت سمكة سلمون مرقطة كبيرة الحجم نوعاً ما، فحملها المنظر على الابتسام وهي تتذكر رحلات الصيد التي كانت تقوم بها في عهد الصبا مع أبيها وأخيها.

كان والدها الآن، في كندا يزوران أخاها جون وزوجته وولديهما التوأمين... وكان هذا هو السبب في أن دعوة ابنة عمها سالي كانت مناسبة لها.

كانت المودة قوية بين سارة وابنة عمها التي كانت تكبرها بثلاث سنوات والعلاقة دائماً وثيقة بينهما، وكانت هي مرافقة سالي أثناء عرسهما هي روس، منذ سنتين، كما أن اكثر من سنة مضت عليهما الآن دون أن ترى الواحدة منهما الأخرى.

حاولت سالي إخفاء الصدمة التي انتابتها حين قابلتها في محطة القطار، وهي ترى نحولها والتوتر البادي على عينيها وحركاتها.

واعترفت سارة لنفسها، بأنها كانت تبدو لمن يجهلهما من قبل، أنها هي الأكبر سناً. إنما الآن، وبعد أن اعطت نفسها حقها من الراحة والاسترخاء، محاولة التخلص من الشعور، العاطفي والعقلي، بالذنب لاهتمامها الأناني هذا بنفسها، ابتدأت تستعيد، مرة أخرى، بعض ما فقدته من وزنها، فلم يعد جسدها البالغ من الطول خمسة أقدام، يبدو نحيفاً، كما فارق الشحوب لونها بفعل جو الريف وشمسه.

وكانت هذه هي مشكلة ذوي الشعر الأحمر إذ أنه اثناء الاضطرابات العاطفية والجسدية، ينعكس ذلك على الجلد فيبدو شاحباً.

ومنحتها الأوقات التي تمضيها خارج البيت لوناً أسمر متألقاً كما أشار روس إلى ذلك مازحاً اثناء العشاء الليلة الماضية، وسالي قالت لها أثناء خروجها هذا الصباح، انها ابتدأت تعود إلى ما كانت عليه من جاذبية طاغية أثارت الكثير من فضول وتعليقات الجنس الآخر اثناء حفلة الزفاف.

وعبست سارة في وجه ابنة عمها لسماعها هذا الكلام، إذ لم يسبق لها قط أن اعتبرت نفسها جميلة أو ذات جاذبية طاغية. وتابعت طريقها وهي تحاول أن تبعد عن ذاكرتها المشكلات التي تعرضت لها، في أول عهدها بالتعليم، حين رفض بعض زملائها، كبار السن من تلاميذها، النظر إليها بعين الاعتبار بسبب مظهرها. فقد كان لون شعرها الأحمر مع عينيها الخضراوين المفعمتين بالمشاعر، إلى وجنتيها العاليتين وذقنها الصغيرة التي ورثتها عن أمها، كان كل هذا، إلى جانب النظرة المثيرة في عينيها، يعطيها مظهراً مُلفتاً غير متعمد.

كان مظهرها هذا قد سبب لها، في عهد المراهقة، مشكلات لا نهاية لها إذ كان يثير تنافس وغيرة بنات جنسها، مما جعل من الصعب عليها إنشاء صداقات معهن. كما كان يقود الفتيان الذين كانت تقابلهم، إلى الظن بأنها فتاة مغامرة لا يهمها سوى التسلية، وهذا كان بعيدا عن الواقع.

وفي الجامعة، وجدت أن خير طريقة لمواجهة هذه المشكلة، هو أن تتخذ مظهراً صارماً متزمتاً بعكس مظهرها لتوحي بأن مجيئها إلى الجامعة للتعلم والحصول على شهادتها، وليس لمجرد قضاء وقت ممتع.

وفي الوقت الذي تركت فيه الجامعة وابتدأت أول عمل لها، أخذت ترفع شعرها الطويل، وتخفف من تاثير ملامحها هذه بالإقلال من الزينة على وجهها، هذا إلى توخي الحشمة في ملابسها ذات الألوان الهادئة، لتكبت بذلك رغباتها الجامحة في ارتداء ملابس أكثر بهجة وأنوثة.

ولقد تجلى العبوس والنفور على وجه سالي حين لاقتها في المحطة، وهي ترى الثوب الذي كانت سارة ترتديه والذي كان بعيداً عن الجمال. وقالت هذه معتذرة، بأن آخر شيء كانت تريده كمعلمة، هو أن تبدو مثيرة. ولكنها كانت من الارهاق واستنزاف القوى بحيث لم تعبأ ولم تجد القوة لمقاومة سالي وهي تصطحبها إلى لودلو ومن ثم ترغمها، دون رحمة، على أن تستبدل كل ثيابها التي أحضرتها معها، تقريباً.

وكان هذا هو السبب في أنها، هذا النهار، كانت ترتدي بنطالاً من الجينز وقميصاً خفيفاً أبيض عاري الذراعين والكتفين. وقد ربطت شعرها على شكل ذيل الحصان لترفعه عن رقبتها.

كانت موجة الحر تلك تبعث على الشعور بالوهن، مما شلّ تفكيرها، أو ربما كانت من الإرهاق بحيث بدا لها أنه من الأسهل أن تدع الآخرين يقررون طريقة حياتها، أو ببساطة تدع نفسها تسير مع التيار.

وسمعت خلفها خطوات قفزت على أثرها بانزعاج، بينما أطلقت بعض الطيور زعيقاً حاداً محذرة.

توترت عضلات سارة حالاً. لقد كان هذا المكان من الهدوء بحيث تعتبره مكان استجمامها الخاص. وهكذا، جرّت نفسها بعيداً، نحو اغصان شجرة الصفصاف المتهدلة، محاولة الاختفاء عن أنظار من يمكن أن يكون ماراً، آملة أن تنجح في أن يمر ذلك المتجه نحوها دون أن تلفت أنظاره فيتوقف للتحدّث معها.

كان نفورها هذا من أي تورط مع الغير، شيئاً جديداً عليها، ربما بسبب المحاضرة التي تلقّتها من رؤسائها ينذرونها فيها بأن مبالغتها في التورط مع تلاميذها ضار بمهنتها.

أغمضت عينيها مصممة على إغفال أي صوت قد يقترب من مخبئها. ولكن كان من المستحيل عليها أن تغفل صوتاً صبيانياً خجولاً يقول: «أرجو المعذرة، ولكن، هل هذا هو الطريق إلى لودلو؟»

فتحت عينيها مرغمة.

كان صبياً لا يكاد يتعدى السادسة من عمره واقفاً ينظر إليها، كان أشقر الشعر أزرق العينين نحيف الجسم بالنسبة إلى سنه، يحيط به جو من القلق أدركته أحاسيسها للتو.

وحتى عندما أخذت تحدث نفسها عنه، أياً كان هو أو مهما كان الغرض من وجوده هنا وحده في مثل هذا الطريق الريفي المقفر، فإن هذا لا يعنيها بشيء، وأن كل ما عليها أن تفعله، هو أن تجيب عن سؤاله، ومن ثم تدعه يتابع طريقه.

ولكن جزءاً آخر من نفسها، ذلك الجزء الأنثوي العاطفي الذي كثيراً ما سبب لها المتاعب، كان يتساءل عمن تراه يكون، ولماذا هو هنا بمثل هذه الوحدة القاسية وهو في هذه السن الصغيرة؟

عندما جلست وأمعنت فيه النظر، قالت كاذبة: «إنني، في الواقع، لا أدري. ولكن عندي هنا خريطة، فإذا شئت أن تجلس إلى جانبي برهة، فإن في استطاعتي أن ألقي عليها نظرة.»

فقد كان عندها خريطة، فعلاً، وأيضاً كان عندها الغداء الدسم الذي اعتادت سالي أن تحمّلها إياه يومياً.

تقدم الصبي ببطء، خطوة نحوها، وهو ينظر خلفه من فوق كتفه، فيبدو في عينيه، بجلاء، الخوف والتوتر.

ممن كان يهرب؟ لقد أخذت سارة تتساءل وهي تفتح حقيبتها، متعمدة التباطؤ في تحركاتها وبتباطؤ مماثل، أخرجت علبة عصير وبعض الساندويتشات.

وكان عدم استعداد الصبي لهذه المغامرة تكشف عن حداثة سنه. وكانت ملابسه كذلك غير عملية، فقد كانت عبارة عن بنطال من الجينز، ثقيل وقميص مقفول، وينتعل حذاءً رياضياً. وكان الجينز سميكاً مما لا يتلاءم مع هذا الجو الحار، وأكبر من قياسه. بينما قميصه وحذاؤه يبدوان ثمينين، مما كان يوحي أن من اشترى ثيابه هذه لم تكن لديه فكرة عن حجمه.

قطبت سارة حاجبيها قليلاً وهي تفتح الخريطة التي أخرجتها من الحقيبة.

أشارت إلى الأرض بجانبها، وهي تتظاهر بعدم

ملاحظتها توتره وهو ينظر إلى الطريق التي جاء منها، قائلة: «تعال واجلس هنا، إذ أنني لست ماهرة تماماً في فهم الخرائط، لهذا قد يستغرق مني معرفة طريقك، بعض الوقت. فأنا هنا في عطلة فقط. وأنت؟ هل تسكن في هذه الأنحاء؟»

راقبته وهو يرد عليها دون وعي قائلاً: «نعم. انني أسكن في...» وفجأة، بدت على ملامحه العناد والتعاسة. وهو يتابع قائلاً: «إنني أسكن هنا. إنني أسكن هنا. ولكنني لا أعيش هنا في الواقع.»

قالت: «آه.»

فتحت سارة الخريطة، ثم فتحت لفافة السندويتشات مع أنها لم تكن جائعة، وابتدأت تأكل واحدة وهي تسأله: «أتحب أن تأكل واحدة؟»

فأومأ برأسه وهو يقول بصوت خشن: «نعم من فضلك. فأنا جائع نوعاً ما.»

كان سلوكه ممتازاً، وكان حديثه ملتزماً بالعرف على النمط القديم كما لو كان قد قضى وقتاً طويلاً مع أناس كبار السن، وراقبته سارة وهو يأكل السندويتش وقد ارتسم التفكير على وجهها.

كانت تعلم أنها لن تدعه يذهب. وأن عليها، بأي شكل كان، أن تكسب ثقته، ومن ثم تعيده إلى أسرته.

أممكن هذا؟ أن يسير طفل صغير السن مثله، بمفرده؟ ان الكثير من المخاطر يترصده... سواء من الناس أم من الطبيعة. ولا بد ان أسرته، مهما تكن وأنّى تسكن لا بد أنها الآن تقلب الأرض بحثاً عنه، وقد تملكها الخوف عليه والإنفعال والقلق لأجله.

وفكرت في أنه قد لا يكون أتى من مكان بعيد، وان الإرهاق البادي في عينيه قد يكون نتيجة للخوف والتعاسة وليس التعب الجسماني الناتج عن سير طويل.

بدا على ذراعه خدوش وكأنه سبق وارتطم بشجيرات شائكة، كما كان قميصه ملطخاً بالأقذار. كان قد انهى السندويتش، ومضى يرمق الباقيات بعين جائعة جعل سارة تسأله بلهجة عفوية وهي تخفي ابتسامتها: «هل تريد واحدة أخرى؟»

وعندما اخذ يلتهم السندويتش الأخرى التي قدمتها إليه. قالت له: «في الحقيقة، أنا لست متأكدة من أنك تسير في الطريق الصحيح. إذ يبدو، من هذه الخريطة، كما لو...» وسكتت مقطبة جبينها، متجاهلة التوتر الذي شعرت به ينتابه، وهي تقول: «قد يكون في إمكانك أن تجد الطريق على بُعد نصف ميل أو أكثر قليلاً، من هنا.»

سألها قائلاً: «نصف ميل؟ هل هذه مسافة طويلة؟»

أجابت: «نوعاً ما... ثم هنالك ستة أميال أو سبعة إلى لودلو. هل أنت ذاهب إلى هناك لأجل شيء مهم؟»

ونظرت إليه لتراه يتجنب نظراتها كمن لا يريد أن يكذب عليها، ولا يريد أن يخبرها، كذلك، بالحقيقة.

عادت تقول وهي تنظر في الخريطة: «لا عليك من ذلك... ربما كانت هنالك طريق مختصرة. من المؤسف انني لا أملك سيارة، وإلا كنت اوصلتك بنفسي.»

سكتت لترى ردّة فعله على كلامها، وشعرت بالإرتياح وهي ترى على وجهه التردد والتباطؤ.

قال لها على الفور: «ليس مسموحاً لي بالركوب في سيارة مع غرباء.»

كبحت سارة تنهدة خفيفة وهي تفكر، يا للصبي المسكين. ألم يحذروه أيضاً من أن الحديث إلى الغرباء يحوي نفس الخطورة؟

قالت توافقه وهي تخرج من حقيبتها تفاحة قدمتها إليه: «كلا، طبعاً. هذا لا يجوز.»

وكان ما يزال واقفاً، فربتت على الأرض بجانبها داعية إياه، مرة أخرى، إلى الجلوس قائلة: «إذا أنت جلست هنا فسيكون بإمكانك أن تلقي نظرة على الخريطة. فأنا لست ماهرة تماماً بقراءة الخرائط.»

قال: «كلا!... أمي أيضاً ليست ماهرة...» وبتر كلامه وقد تغيرت ملامحه وهو يتابع: «أعني... لم تكن ماهرة.»

وأدار رأسه لينظر من وراء كتفه وقد ارتجف صوته.

أترى أمه قد ماتت، كما بدا من معنى كلامه؟ أم أن هذا يعني فقط أنها لم تعد تعيش معه؟ ولم يعد لدى سارة شك الآن في أنه كان هارباً وأنه كان تعساً إلى درجة اليأس، ولكنه اطاعها وجلس إلى جانبها.

لم تعد تبدو عليه سمة الطفولة، ولكن حداثة الصبا الأولى ما زالت تبدو على ذراعيه وساقيه. وعندما جلس بجانبها أمكنها أن تشم النظافة في جلده.

قالت له: «إن اسمي سارة... ما هو اسمك؟»

سألته هذا السؤال بينما كانت تقرب الخريطة إليه لينظر فيها.

فأجاب: «اسمي روبرت... مع أن...»

فقالت بإعجاب: «روبرت... إنه اسم فتيان كبار. ألم يدعك أحد بوبي؟»

فهز رأسه قائلاً: «إن... إن جدتي اعتادت أن تدعوني روبي... ولكنه يقول إنه اسم اطفال. إنه يدعوني روبرت.»
وانقبضت ملامحه فجأة، وتجمعت الدموع في عينيه. وافترضت سارة أن كلمة (لكنه) التي لفظها بمثل ذلك الغضب وتلك الكراهية، يشير بها، على الأغلب، إلى أبيه.

ولم تشأ أن تخيفه بالإلحاح عليه بالأسئلة، فقالت ببساطة: «حسناً، إن روبرت إسم فتيان كبار. وأظن أن عمرك لا بد أن يكون... حسناً، لا بد انك في الثامنة من عمرك.»

وسرعان ما شاهدت تأثير كلماتها عليه، إذ انتفخ صدره وجفت الدموع في عينيه وهو يقول: «إن عمري ست سنوات، بل تقريباً سبع، سأبلغ السابعة في شهر أيار - مايو.»

في شهر أيار... ولكنهم مازالوا في شهر تموز - يوليو الآن، وهذا يعني أنه في السادسة. واتسعت عينا سارة بإعجاب وهي تقول إنها كانت تظنه اكبر بكثير من هذه السن.

قالت برقة: «ألا تفتقدك جدتك، يا روبرت؟ لا بد أنها تتساءل الآن عن مكانك. هل تركت لها خبراً؟»

امتلأت عيناه بالدموع على الفور وهو ينفجر قائلاً: «إن جدتي ميتة، لقد ماتت في حادث اصطدام سيارة مع أمي وتوم... وكان عليّ أن أعود إلى هنا لأعيش مع... معه. إنني أكرهه. إنني أريد أن أعود إلى بيتنا... لا أريد البقاء معه بعد الآن. إن في استطاعة السيدة ريتشاردز أن تعتني بي. لقد فعلت ذلك عندما كانت أمي وتوم مسافرين، وكانت جدتي مريضة، ليس عليّ أن أسكن معه هنا. لقد أخبرتني

أمي بذلك. قالت إنني غير مجبر على رؤيته إذا أنا لم أشأ ذلك. وأنا لا أريد ذلك. إنني لا أحبه. لقد قالت أمي إنه، على كل حال، لم يرغب بي أبداً... ولهذا أرادها أن تأخذني إليها.»

واستمعت سارة إلى هذا الخليط من الكلمات. وقد تدفق العطف عليه دموعاً حاولت جهدها أن تصدها، محاولة أن تبني على ما قاله وما لم يقله، حقيقة وضعه. فوالداه إما مطلقين أو منفصلين، ويبدو أنه كان يعيش مع أمه وربما مع جدته في منطقة ما من البلاد. وفهمت من كلامه أنه فقدهم في حادث سيارة وهو الآن يعيش مع والده الذي، كما يبدو، لم يكن يريده وقد أرغم الآن على أن يتحمل مسؤوليته. يا للصبي المسكين. لا عجب أن يبدو تعيساً الآن، ولا عجب إذا هرب من منزله.

ولكن، بقدر ما شعرت بالتعاطف معه وشعرت بالألم لأجله، شعرت بوجوب معرفة مكان سكنه ومن يكون والده ذاك.

سألته: «إذن، فأنت ذاهب الآن لكي تفتش عن السيدة ريتشاردز، أليس كذلك؟» ولما أومأ برأسه بالإيجاب، عادت تسأله: «وأين تسكن هي؟ هل هي بعيدة من هنا؟»

أجاب باهتمام: «إنها تسكن في لندن.»

قالت بعطف: «في لندن؟ ولكن لندن بعيدة جداً. جداً بعيدة. هل مر عليك وقت طويل وأنت تسير.»

أجابها على الفور ببراءة: «تركت البيت بعد الفطور.» وشعرت هي بالذنب لخداعها له، ولكن كان هذا لمصلحته، ولحمايته. وتابع قائلاً: «كان عليّ أن انتظر ذهابه هو أي

أبي، إلى العمل. وقد خرجت السيدة جاكوبس للتسوق. وكانت طلبت مني ان لا أخرج من الحديقة. إنني لا أحبها.»

السيدة جاكوبس؟ وعضت سارة على شفتها. كانت متأكدة من أنها سمعت مرة سالي تاتي على ذكر السيدة جاكوبس على أنها إحدى جاراتها في القرية. وقد استقر في ذهنها أن المرأتين لا تحب الواحدة منهما الأخرى، وأن سالي تحتقر، قلبياً، تلك المرأة وتكرهها.

سألته سارة: «وهل... هل تركت خبراً لأبيك؟»

فهز رأسه نفياً وقد بدا على وجهه العناد وهو يقول: «إنه لن يهتم. بل سيكون مسروراً إن تخلص مني. إن السيدة جاكوبس تقول إنني مزعج جداً، وإنني أسبب كثيراً من التخ... التخ...»

فقالت سارة: «من التخريب؟» وأومأ هو برأسه بالإيجاب وقد تأثر بقدرتها على قراءة افكاره. وبقدر ما تعاطفت هي معه، كانت تريد ان تستخلص منه عنوانه لتعيده إلى منزله.

ومع أن ما فهمته عن أبيه والسيدة جاكوبس، لم يكن ساراً، فإنها لم تلاحظ أية علامات لأية سوء معاملة، جسدية كانت أم عاطفية، بادية عليه، فهي من الخبرة بحيث كانت ستلاحظ حتماً لو كان ثمة شيء من ذلك. إذ أنه، مع كل خوفه وخشيته، كان ينقصه الصمت اليائس، وذلك الخوف العميق الذي ينبعث من أمثال أولئك الأطفال.

ولكنه كان شقياً إلى درجة كبيرة، ولم تستطع إلا أن تتساءل عمن تراه والده وما يمكن أن تكون عليه تصرفاته. فقد أخذت فكرة من حديث روبرت عنه أنه يعتبر إبنه هذا عبئاً... وإزعاجاً.

عادت تسأله: «إذن، فهذا هو السبب في أنك تريد أن تذهب إلى لندن... لكي تفتش عن السيدة ريتشاردز.»

أجاب: «هذا أفضل من أن اعيش مع أبي.» وامتلأت عيناه بالدموع وهو يكرّر: «إنني لا أحبه.» وبوحي من الغريزة، فتحت سارة ذراعيها له، ليلقي بنفسه بينهما وهو ينشج باكياً، بينما أخذت هي تهدهده وتربت عليه.

يا للطفل المسكين، إنه مازال طفلاً مهما حاول الإدعاء بغير ذلك. وحالاً، بعد أن تهدأ مشاعره قليلاً، ستحاول هي أن تأخذه بالملاطفة لكي يقبل بالعودة إلى منزله. ولكن المهم، في هذه اللحظة، أن تكسب ثقته وتتحبب إليه، بدلاً من أن تستجوبه. وهكذا تركته يبكي وهي تهدهده وتلاطف شعره الأشقر.

منعها استغراقها في هذا العمل، من أن تغفل عن تنبيه الطيور التي اندفعت بالطيران بعد إذ أزعجها متطفل ما. وهكذا كان أول عملها بقدومه هو عندما انزاحت اغصان شجرة الصفصاف، التي كانت تحميهما، جانباً، فرفعت عينيها لترى رجلاً فارع الطول بادي الغضب، وقف يحدق بها ثائراً.

«روبرت.»

وكان في هذا التنبيه المختصر للصبي، ما كشف عن العلاقة بينهما حتى قبل أن يبدأ الصبي بالإرتجاف، متعلقاً بها.

همست له مهدئة: «لا بأس يا روبي.» وبان الغضب في عينيها إزاء خشونة الأب.

قال الأب بلهجة فيها من الأمر اكثر مما فيها من الرجاء: «هل لك في أن تتركي إبني...»

لكن سارة لم تستجب على الفور، لكلماته تلك، خصوصاً بعد الفكرة السيئة التي سبق وكونتها عنه، ثم تصرفه غير السليم إزاء هذا الوضع وعدم قدرته على أن يرى أن موقفه العدائي هذا يسيء إلى ولده ويملؤه رعباً.

قالت كاظمة غيظها: «لا بد أنك والد روبرت.» حاولت الوقوف ولكن ذلك لم يكن سهلاً وروبرت ما زال متعلقاً بها، ولكنها تمكنت من ذلك بطريقة ما.

ودون وعي منها، عادت إلى سلوكها الذي اعتادته في الصف، ناسية أنه لا يناسب ما ترتديه من ملابس وطريقة تصفيف شعرها بشكل ذيل الحصان، وخلو وجهها من أية زينة، إلى أن رأت نظراته الغاضبة المزدرية التي كان يتفحص فيها مظهرها.

رد عليها قائلاً بفتور: «نعم. إنني هو. ولكنني لا أعرف من أنت. وماذا تفعلين مع إبني. وعليك أن تعلمي أن الشرطة لا تتهاون مع مسألة اختطاف طفل.»

اختطاف طفل...؟ أذهلها ما يتضمنه كلامه، عن أن ترد عليه.

وكان روبرت قد زاد من تعلقه بها الآن، ولم تستطع أن تتأكد من هو الذي يرتجف اكثر من الآخر، هل هو روبرت، من الخوف، أم هي، من الغضب؟

وما لبثت أن ردت عليه بانفعال: «نعم، وهو كذلك لا يتهاون مع قسوة الأب.»

«قسوة الأب؟»

كان قد ابتدأ يتقدم نحوهما ولكنه توقف لدى سماعه كلامها هذا. كان وجهه قد لوحته الشمس. ولكنه، فجأة،

تلاشى كل لون فيه، ليس من الخجل أو الشعور بالذنب، بل من الانفعال.

لقد رأت ذلك يتألق في عينيه. كانت عيناه زرقاوين شديدتي الشحوب وفي برودة الثلج، كما رأتهما في البداية، ولكنهما أصبحتا الآن من الحرارة بحيث كانت تشعر بوقع ذلك على جلدها.

وكان، بعكس روبرت، أسمر اللون، كما أنها لاحظت أن شعره الكثيف القاتم، كان يتخلله بعض الاشقرار وكأنه سبق وأمضى وقتاً طويلاً في جو شديد الحرارة.

ولكن المدهش أن وجهه كان شديد الشبه بوجه إبنه، أو بالأحرى، كان إبنه نسخة مصغرة عنه. فقد كان لهما نفس الملامح ونفس الأنف والفم. ولكن، بينما كانت الشفة السفلى عند الصبي، ترتجف بعواطف الطفولة وخوفها، كانت عند أبيه تدل على احتدام العواطف. مما جعل جسد سارة يتنبه للخطر الذي كان اكثر عمقاً من غضبه البادي، ولم تسمح لنفسها بالتمعن في هذا الشعور. فقد كانت من الاهتمام والتركيز على روبرت وخوفه الطاغي من أبيه وعثور هذا عليه، اكثر من أن تهتم بشكل أبيه كرجل... كلا، ليس كرجل وإنما... كصياد... متعجرف، بينما تبدو هي فريسة أمامه.

عاد يكرر عابساً: «قسوة أب.» مما شد من انتباهها، وتابع: «ما الذي تريدين قوله؟ وما الذي كان يخبرك به روبرت؟»

ومن دون أن يقوم نحوها بأية حركة، ومن دون أن يرفع صوته أو يقوم بأية محاولة لاستعراض القوة. كان يحاول

تهديدها، وقد استجابت هي، على الفور، لمحاولة التهديد هذه، إذ استطالت بجسمها إلى أقصى ما تستطيع، وهي تبادله نظرات فولاذية.

قالت له وإن لم تكن تتوخى الصدق تماماً: «إن روبرت لم يقل شيئاً لأنه كان في أشد حالات التعاسة. إنه صبي صغير في منتهى الشقاء...» وسكتت لحظة، ثم أضافت لتضفي القوة على ما تقول: «لقد كان في طريقه إلى لودلو... إلى لندن.»

ورأت الدم يندفع إلى وجهه، وعلمت مبلغ كراهيته مواجهة الحقيقة. وربما كانت تشعر بالأسف لأجله لو اختلفت الظروف. كان يرتدي بذلة عمل ثمينة. ولاحظت أن يديه مخدشتان بشكل سيىء، وحذاءه مغطى بالوحل وكأنه كان يندفع دون هوادة في هذا الطريق الضيق على طول جدول المياه، وذلك إبان بحثه، باستماتة، عن إبنه الضائع. ولكن، ما الذي كان يدفعه إلى ذلك؟ أهو الغضب؟ كان ذلك يبدو على وجهه بالتأكيد مزيجاً بالضيق ونفاد الصبر، ولكن ما لم تستطع أن تراه هو المحبة، تبكيت الضمير، الشعور بالذنب.

قال باقتضاب: «تعال إلى هنا يا روبرت.» وعبس عندما رفض إبنه أن يطيعه. كان من الواضح أنه لم يعتد التعامل مع الأطفال، كما بدا لسارة. ودفعها الشعور بالعطف على الصبي المتشبث بها، إلى ان تقول بهدوء: «ربما إذا أنا عدت معكما..؟» وبدا الرفض حالاً على ذلك الوجه الذي لوحته الشمس، وقد استحالت عيناه اللتان كانتا تتفرسان فيها، إلى مثل الثلج.

كان في إمكانها أن ترى الرفض على شفتيه. ولكن، قبل أن يقول شيئاً، انفجر روبرت يقول بانفعال: «لا أريد أن أعود. لا أريد أن اذهب معك... إنني اكرهك.. إنني أكرهك... وماما كانت تكرهك هي أيضاً.»

وعاد إلى البكاء وذرف الدموع، وكادت تستحيل شهقاته إلى هيستيريا. وانحنت سارة دون وعي ترفعه بين ذراعيها، ليدفن وجهه في عنقها، وهو يحتضنها بعنف بذراعيه الصغيرتين، بينما كانت هي تربت عليه تهدئه.

وبينما كانت تتحدث إليه بهدوء، سمعت الأب يتمتم شاتماً.

وكشف عن معصمه بعنف يلقي نظرة على ساعته، ومالبث العطف الذي سبق وشعرت به سارة نحوه، أن تبخر وهي تسمعه يقول بحدة: «هذا يكفي، يا روبرت. اسمع، إن عندي اجتماعاً بعد نصف ساعة...»

ولا بد أنه رأى نظرة الإزدراء والكراهية التي نضحت بها عيناها، لقد أدركت سارة ذلك لأنه سكت وقد اطبق فمه بشدة، قبل أن يقول لها ببرودة: «إنني رجل أعمال كما أنني أب. وإن عليّ مسؤوليات نحو القوى العاملة عندي بقدر ما عليّ نحو إبني، وإن نتيجة عقد جديد هام، هي معلقة الآن، وهذا هو الاجتماع الحاسم. ومن دونه... حسناً، فلنقل إنني، من دونه، سيكون عليّ ان اصرف بعض القوى العاملة. لماذا، لم يجد سوى هذا اليوم من بين كل الأيام، لكي يقوم بلعبته هذه؟ ويمكنك التصور أن السيدة جاكوبس قد فقدت عقلها لغيابك، أليس كذلك؟» كان الآن يحدث إبنه، متابعاً: «لقد اتصلت بي في العمل لتخبرني أنك اختفيت. ولو لم يكن بن

قد شاهدك تتوجه نحو الجدول... وبالنسبة إليك...» وحدج سارة بنظرة غاضبة مُرة وهو يتابع: «لا بد أنك أدركت أن صبياً وحده، وبهذه السن، يترك منزله دون علم المسؤولين عنه بمكان ذهابه. وبدلاً من تشجيعه، كان عليك ان تحاولي إعادته إلى البيت.»

شهقت سارة لاتهامه هذا لها، ولكن، قبل أن تستنكر كلامه، عاد يتحدث إلى ابنه قائلاً: «إننا سنعود إلى البيت، يا روبرت.»

ولكن. كما توقعت سارة، رفض الصبي أن يستجيب. وعندما حاول والده امساكه، تشبث مستميتاً، بها.

كانت تعلم أن كل هذا لا ضرورة له، وأن ليس ثمة شيء آخر يضطره إلى ان يقترب منها، إلى حد يضع معه ذراعيه حولها لكي يفك يدي روبرت من حول عنقها. لقد استطاعت أن تشم رائحة جلده الحارة، وترى مسام بشرة وجهه الدقيقة، وكذلك اهدابه الكثيفة.

وانتبهت بضيق، إلى ردة فعلها نحوه، إذ شعرت بالتجاوب الأنثوي يهز أوصالها.

وحاولت أن تبتعد عنه إلى الخلف، يدفعها إلى ذلك رغبتها، من ناحية، في أن تجعل بينهما بعض المسافة، ومن ناحية أخرى رغبتها في مساعدة إبنه وذلك بقولها له بصوت أجش: «إسمع، إن الأمر يصبح أسهل كثيراً إذا أنا عدت معكما.»

كان في إمكانها أن ترى الرفض، والكراهية في عينيه وهو يسمرهما عليها. كان مايزال قريباً جداً منها... قريباً جداً كما أدركت من شعورها بأنفاسها تتوقف وبقلبها تتسارع خفقاته.

ولكنه قال أخيراً: «حسناً، الأفضل أن تأتي معنا. من هنا الطريق.»

وفكرت سارة بعبوس، في أن بعض الناس عندهم ذوق، وذلك حين استدار هو على عقبيه متوقعاً منها أن تتبعه، ولكنها دهشت إذ رأته يتوقف، ليزيح من أمامها فروع الشجر لكي تتمكن من المرور، ثم يحمل حقيبتها قبل أن يقول لروبرت بهدوء: «إن لديك ساقين، يا روبرت، ثم إنك اثقل وزناً من أن تدع الآنسة...»

فقالت سارة بشكل تلقائي: «سارة... سارة مايرز.»

فأكمل كلامه قائلاً: «تدع الآنسة مايرز تحملك كل هذا الطريق إلى البيت.»

ورد عليه روبرت وقد برزت شفته السفلى بعناد وهو يلتفت نحوه: «لا أريد أن أمشي.» وكان عنق سارة قد تبلل بدموعه.

واجتاحتها موجة من الحنان وهي تتمنى لو حاول أبوه أن يفهمه على الأقل وأن يشعر بشيء من الشفقة عليه.

قال الأب: «حسناً جداً. ما دمت لا تريد أن تمشي، فسأحملك أنا.»

ورق قلبها للطفل المسكين وهو ينكمش لا يريد أن يقترب من أبيه.

أنزلته إلى الأرض، ممسكة بيده وقد وضعت نفسها بينه وبين أبيه، وهي تقول له بلطف: «لماذا لا تريني الطريق، يا روبرت؟»

وعندما أدارت رأسها، وجدت أن حركتها هذه لم تغب عن الأب إذ رأت فمه يلتوي بسخرية وهو يقول عابساً بلهجة ذات

معنى: «إنك أم صغيرة تماماً، أليس كذلك؟ ما الذي في جنسك يمنعك من التفكير منطقياً عندما يكون هناك أطفال؟ ألا ترين أنه..؟»

وقاطعته هي قائلة بتحد: «إنه ماذا يا سيد..؟» ونظر إليها مقطباً وكأنما أدهشه منها مهاجمتها له، من ناحية، ومن ناحية أخرى رغبتها في معرفة اسمه.

وقدم نفسه إليها بفتور قائلاً: «اسمي غراي... غراي فيليبس. ويجب أن تكوني قادرة على أن ترى أن روبرت يدفع بنفسه إلى حالة هيستيرية.»

أجابت تواجهه بفتور بصوت منخفض لكي لا يسمعها روبرت: «كلا... إن ما أراه هو طفل صغير فقد كل شخص كان يحبه... طفل صغير يبدو أنه ترك في رعاية امرأة لا تحبه ولا تهتم به... طفل لا يجد من يتوجه إليه سوى مدبرة منزل جدته المتوفاة.»

كانت سارة تعلم أنها اندفعت عاطفياً، ولكنها لم تستطع مقاومة نفسها.

كان ثمة شيء يتعلق بهذا الرجل الصعب عديم الصبر دفعها إلى أن تصارحه بالأزمة العاطفية التي يعاني منها ابنه. وتابعت تقول: «وما أراه أيضاً هو أنه لا يبدو عليك أنك تعرف الكثير عن الأولاد، يا سيد فيليبس.»

حبست انفاسها وهي تراه ينظر، متعمداً، إلى يدها الخالية من الخواتم، وهو يسألها بلطف: «وهل تعرفين أنت؟ هل عندك أطفال؟»

واحمر وجهها لشعورها بالإهانة، وهي ترد عليه قائلة: «كلا... ليس عندي.»

قال وهو يصر على أسنانه: «انتظري إذن، إلى أن يصبح عندك أولاد قبل أن تدلي بنصائحك.»

فاندفعت ترد عليه قائلة: «قد لا يكون عندي أطفال، إنما مهنياً...»

قاطعها بحدة: «مهنياً؟ ماذا يعني هذا بالضبط؟ ما هي مهنتك بالضبط؟»

أجابت: «إنني معلمة.» وتساءلت وهي تنطق بهذه الكلمات، إلى متى ستبقى هذه الكلمات صحيحة؟ ولكنها ما لبثت أن أزاحت مخاوفها وشكوكها هذه جانباً بعد إذ شعرت بيد روبرت ترتجف في يدها.

إن كراهيتها لهذا الأب ليست هي المهمة، ولكن خصومتها له لن تكون في صالح روبرت.

لقد قال روبرت بعنف الأطفال، إنه (يكره) أباه، ولم تغفل عين سارة عن نظرة الألم الخاطفة التي بدت في عيني غراي فيليبس وهو يسمع رفض إبنه له. وبالرغم من تعاطفها مع الصبي، فقد اعترفت لنفسها بأن الرجل له ملء الحق في ان يعيد الصبي إلى البيت.

وما كانت لتستطيع منعه من ذلك، ولكن ما كانت تستطيعه هو أن تذهب معه. ولترضي نفسها قدر الإمكان، اخذت تقنع نفسها بأن حزن روبرت كان لفقده أولئك الذين كان يحبهم وليس سوء معاملة أبيه له.

والغريب أنها، بالرغم من الخصومة التي أبداها هو نحوها، لم تستطع أن تقنع نفسها تماماً بأن غراي فيليبس كان يسيء معاملة إبنه. لقد كان بالغ الغضب وهو يسمع ذلك... وكانت ردة فعله لاختفاء ولده خالية من الشعور

بالذنب والخداع الذي يدفع إلى الظن أنه يعلم تماماً السبب الذي دفع ولده إلى الهرب.

كان يسير أمامهما ولا يتوقف إلا ليزيح من طريقهما العوسج والأشواك التي كانت تسد الطريق، وكان عبوسه يزداد، كلما رأى طريقة تعلق روبرت بها وهو يسير إلى جانبها.

ومضت عشرون دقيقة قبل ان يصبحا على مشارف القرية، ونكن غراي فيليبس لم يتجه نحوها، وبدلاً من ذلك، شق طريقه إلى ممر آخر أضيق وأقل تمهيداً انتهى خارج بوابة ضخمة قامت في جدار عال من القرميد.

فتح غراي فيليبس البوابة لها لتمر هي وروبرت بينما وقف هو جانباً... هل كان ذلك ناشئاً عن سلوك مهذب، أم أنه ربما كان يخاف من أن تحمل روبرت وتنطلق هاربة به...؟ أي حظ قذف بها إلى التعامل مع مثل هذا الرجل الفظ؟

كانت النباتات المتنامية تكسو الحديقة في الداخل وكان العوسج اكثر كثافة من تلك التي اعترضتهم في الطريق الخارجي. وقام خلف النباتات البرية تلك، حلقة من الأشجار تحيط بمرج أخضر انتشرت فوقه مساكب الأزهار. ووراء هذا كله، قام المنزل، الذي كان مبنياً من القرميد الأملس، وانتشرت فيه النوافذ بشكل غير منتظم.

أدركت سارة أن نمطه يعود إلى العهد الاليزابيتي وأوسع بكثير جداً من كوخ ابنة عمها في المزرعة.

ومهما كان ينقص والد روبرت، فقد كان واضحاً أنه رجل بالغ الثراء، ولكن الثروة لا تشتري السعادة. وحتى عندما كانت تنظر إلى المنزل، بإعجاب، فإنها لم تحسده على

المال الذي مكنه من شرائه، وماذا يفيد المال عندما يخاف إبنه منه؟ وعندما تتركه زوجته؟ أتراها خافت منه هي أيضاً، ولكن لا بد أنها أحبته في الماضي حين تزوجته، وأنجبت منه ولداً.

وسرت في اوصالها قشعريرة وهي تدرك إلى أي حد وصلت بها أفكارها. ذلك أن مناقشة الحياة الحميمة لشخص ما حتى ولو بينها وبين نفسها، كان شيئاً غريباً عليها تماماً إلى حد شعرت معه بالرعب مما كانت تفعل.

وتباطأت خطوات روبرت وهم يجتازون المرج. ووقف مسمراً قدميه في الأرض. أما الأب فقد وقف ينظر عابساً إليهما هما الاثنين.

قال روبرت: «أما زالت السيدة جاكوبس هنا؟» وحبست سارة أنفاسها وهي ترجو أن يكون الأب من الحساسية بحيث يشعر بلهجة الخوف التي بدت في سؤال ابنه هذا.

أجاب الوالد باقتضاب: «كلا. إنها ليست هنا.» ثم، وكأنه لم يستطع أن يمنع نفسه، انحنى أمام الصبي الصغير ووضع يديه على كتفيه، سائلاً إياه بصوت أجش: «لماذا فعلت ذلك، يا روبرت؟ لماذا هربت؟ كان يجب أن تعلم إلى أي حد سيقلق ذلك السيدة جاكوبس. إنك تعلم أنه من غير المسموح لك أن تخرج من الحديقة... كما تعلم.»

تعلق روبرت بيديه الاثنتين، بيد سارة، وابتدأ يرتجف بعنف. وتدفقت الدموع من عينيه وهو ينفجر قائلاً بحرارة: «إنني لا أحب أن أعيش هنا. أريد أن أذهب إلى البيت... أريد جدتي... أريد السيدة ريتشاردز... أنا لا أحب العيش هنا.»

سقطت يدا الأب عن كتفي ولده على الفور وأشاح بوجهه بعيداً وهو يقول بصوت منخفض أجش: «إن جدتك هي ميتة الآن، كما تعلم يا روبرت.»

وسكت وهو يسمع آهة صدرت عن سارة، وقد شعرت بالصدمة.

قال لها متحدياً: «ما الذي تريدين مني أن أفعل؟ أكذب عليه؟ أدعي أنه لم يحدث شيء؟ وأن أمه وعشيقها وجدته مازالوا أحياء؟»

وتابع حديثه مخاطباً إبنه: «هيا يا روبرت. ولندخل معاً جميعاً. وهذه المرة يجب أن لا تهرب.»

ووقف وهو يمسك بذراع الصبي بثبات، ولكن هذا بقي متكمشاً بسارة متوسلاً إليها بأن لا تتركه.

ربما لم يكن والده خشناً معه، في الواقع، ولكن يبدو أنه لا يملك فكرة عن كيفية التعامل معه، وقد لاحظت سارة هذا عندما حاولت أن تهدىء من روع الصبي، فأخذت تمرر بيدها على شعره تبعده عن جبينه وهي تعده بقولها: «إذا كنت ولداً طيباً، وذهبت مع أبيك الآن، يا روبرت سأعود لرؤيتك غداً إذا شئت.»

قال الأب: «لا حاجة بك لذلك.»

وقابلت هي نظرة التحدي التي ألقاها غراي فيليبس إليها بنظرة منها مماثلة وهي تقول ببرود: «ليس بالنسبة إليك، ولكن روبرت...»

وهتف روبرت: «لا أريدك أن تتركيني. أريدك ان تبقي معي.» ثم انفجر بالبكاء.

وركعت بجانبه محاولة التسرية عنه بكل ما في وسعها

قائلة: «لا يمكنني البقاء الآن، يا روبرت، ان ابنة عمي ستتساءل أين عساي أن اكون. ولكنني اعدك بأن آتي لرؤيتك غداً.»

وألقت نظرة متمردة على غراي فيليبس وهي تنطق بهذه الكلمات، متحدية إياه أن يرفض السماح لها برؤية ابنه، ثم وقبل أن ينطق هو بكلمة رفض، وليأسها من أن تمحو دموع روبرت المتوسلة لها بالبقاء أدارت ظهرها للاثنين، ثم أسرعت خارجة من البوابة.

الفصل الثاني

بعد ذلك بنصف ساعة، كانت سارة تتجه نحو كوخ ابنة عمها وهي لا تزال ترتجف من أثر الصدمة. كانت ما تزال غير مصدقة أن ما حدث قد حدث حقاً. ذلك الصبي الصغير المسكين وحزنه البالغ، وذلك الأب المتسلّط... عديم الصبر والذي كان لا يعرف كيف يتعامل مع تعاسة ابنه ويأسه.

كانت سالي في الحديقة عندما دفعت سارة الباب داخلة، وبادرتها وهي تنظر إليها بإمعان: «هل أنت بخير؟ يبدو عليك التأثر؟»

عندما انتهت سارة من اخبارها قصة ما حدث معها، قطبت هذه جبينها قائلة: «غراي فيليبس؟ لقد كنت سمعت أن ابنه وصل حديثاً ليقيم معه، بعد ان ماتت أمه، زوجة غراي السابقة في حادث سيارة، لقد كانت امرأة متوحشة تنشىء علاقات مع رجال آخرين حتى قبل ان يجف حبر وثيقة الزفاف. إنني لم أقابلها قط ولكن يبدو أنهما انفصلا قبل أن يولد الصبي، واعتقد ان غراي ناضل في سبيل أن يكون الوصي على الصبي، ولكنه خسر القضية، وكانت هناك صعوبات في السماح له برؤيته، وهذا ربما يفسر نفور الصبي من والده، لا بد أن الأمر بالغ الصعوبة بالنسبة إليه.»

أجابت سارة موافقة: «نعم، وإلى درجة رهيبة. لقد كان الصغير المسكين في حالة رهيبة.»

واتسعت عينا سالي قائلة: «إنني لم أقصد الصبي بكلامي وإنما الأب... غراي.»

وعندما عبست سارة، عادت سالي تقول: «فكري في الأمر، عندما لا يكون مسموحاً لك أبداً أن تري ولدك ولا أن تفعلي شيئاً له، وفجأة، يأتي إليك ليعيش معك... فيكرهك وربما يلومك لموت أمه... فكري في حالته التي مرّ بها وهو يرى ابنه يختفي.»

وازداد عبوس سارة. لقد جعلتها سالي تشعر بالذنب تماماً... وكأنها لم تكن عادلة، بشكل ما، نحو غراي فيليبس، فحكمت عليه وأدانته.

عادت سالي تقول: «إنك إذن، ستعودين لرؤية الصبي غداً؟»

أجابت سارة: «لقد وعدته بذلك رغم أن الأب لم يكن راضياً.»

نظرت إليها سالي مفكرة وهي تقول: «إنك رقيقة الإحساس جداً. ولكن لن تتورطي كثيراً، أليس كذلك؟ إن الإشاعات تقول ان غراي فيليبس لا يثق بجنسنا، نحن النساء، بالنظر إلى انهيار زواجه.»

أجابت سارة بثبات: «تلك مشكلته هو وليست مشكلتي.» ولكن شعوراً من الفزع انتابها وهي تسمع هذا الكلام مع أنه كان يؤكد ما سبق وشعرت به غريزياً.

ولكن، لماذا تشعر هي بالفزع؟ إن غراي فيليبس لا يعني لها شيئاً، حتى أنها لم تشعر بميل إليه بنوع خاص، إلا انها تاثرت بوسامته، كما ان طريقته في معاملة ابنه لم تعجبها قطعاً.

عندما كانت في الجامعة، وقعت في حب زميل لها يدعى آندي استمر ستة أشهر. ومنذ ذلك الحين، كانت في انشغال دائم، وكانت حياتها مليئة بحيث لم تجد الوقت لمثل هذه العلاقات. لقد كان لها أصدقاء ولكنها لم تشعر نحو أي منهم مما شعرت به نحو غراي فيليبس.

ونبذت هذه الأفكار من عقلها، وهي ترتجف قليلاً، لا تريد ان تواجهها أو تحلّلها.

وبجانبها، كانت سالي تقول: «هل أنت جائعة مثلي؟ فلندخل المنزل لنأكل شيئاً.»

وعلى مائدة العشاء، تلك الليلة، حدثت سالي زوجها روس عما حدث مع سارة.

ارتفع حاجباه وهو يقول: «غراي فيليبس... هم، م، م... هذا غريب، ما رأيك فيه، يا سارة؟ إنه مرموق جداً في عالم الأعمال هنا. لقد استلم مشاريع أعمال الأسرة بعد وفاة عمه الذي كان مهندساً لامعاً في لودلو، واستطاع أن يسير بها بنجاح كبير. لقد سبق وقابلته ولكنني لا أعرفه جيداً. إنه من ذلك النوع الذي يفضل الاحتفاظ بما في نفسه لنفسه، وهو لا يلعب الغولف كما أنه ليس عضواً في المركز الرياضي الخاص الذي افتتح حديثاً خارج لودلو، مع أنه يبدو ملائماً، رياضياً، تماماً. لقد سمعت أن ابنه جاء ليعيش معه، وذلك من رئيسي في العمل، منذ أيام، عندما حدث واتصل به فيليبس سائلاً إن كانت زوجته تعرف وكالة جيدة لتزويده بمن تعتني بابنه، ويظهر أنه كان يعاني من مشكلة من هذه الناحية، إنه رجل ثري عازب...» وهز روس كتفيه متابعاً: «يبدو ان

نوع المرأة التي يريد توظيفها، تكره العمل في منزل ليست فيه امرأة أخرى، أما نوع المرأة التي تريد العمل، فيبدو ان اهتمامها ينصبّ عليه هو أكثر منه على ابنه. اعتقد ان لديه مدبرة منزل الآن.»

قالت سالي: «نعم، إنها السي جاكوبس، وهي من القرية. وأنت تعرفها... إنها ليست من النوع الذي يتسلم مسؤولية صبي صغير.»

والتفت روس نحو سارة سائلاً: «والآن، ما هو رأيك فيه يا سارة؟ إنه رائع، أليس كذلك؟»

أجابت سارة بجفاء: «هذا إذا كان يعجبك الرجل المتغطرس، السيىء الطباع، والعديم الإحساس تماماً.»

كان روس يحب إغاظتها. وكان دوماً يخبرها أن الوقت قد حان لتجد لنفسها زوجاً تستقر معه، ولهذا فقد عرفت تماماً ما يقصده الآن بسؤاله هذا. ولكنها، لم تشأ ان تبتلع الطعم الواضح الذي كان يقدمه.

قالت سالي: «إنني آسفة لأجل الطفل الصغير، يا روس. إن حالته تقرب من الخبل كما تقول سارة، لقد كان يحاول ان يهرب إلى لندن للتفتيش عن مدبرة منزل جدته. لا بد أن شعوره وهو يفقد كل أحبابه، وكل من يأتلف معه، بهذا الشكل، كان فظيعاً، و...»

قاطعها روس: «هم، م، م... هذا مع ان أمه لم تكن حسنة السمعة، ويبدو أن الناس عندهم فكرة سيئة عنها. ولكن، بالنسبة إلى أن غراي هو من هذه المنطقة بعكسها هي، وإلى أن الزواج لم يدم سوى فترة قصيرة... ثم أن يُمنع غراي من حق رؤية ابنه...»

قالت سارة عابسة: «لا بد أن ثمة سبباً قوياً جعل المحكمة تصدر هذا الحكم؟»

أجاب: «حسناً، إن في استطاعتك الحصول على الحكم الذي تريدين إذا أنت أوكلت محامياً جيداً. ومن يعلم؟ من الواضح أن الأم كانت ماهرة جداً في التمثيل واستدرار العطف عندما تريد، بينما غراي، كما سمعت عنه، لم يكن من النوع الذي يحب أن يلتمس عطف الآخرين.»

قالت سارة وهي تفكر في تصرف والد روبرت نحوها من رفض وإثارة للخصومة، ومن سلوكه نحو ابنه: «كلا، إنه ليس من ذلك النوع.»

نظر روس إليها مفكراً، ثم قال: «حسناً، إنه على كل حال، محبوب جداً في هذه المنطقة، وقد قام بخدمات كثيرة للمجتمع.»

قالت سارة عابسة: «من المؤسف أنه لم يقم بشيء لأجل إبنه... أتمنى لو انك رأيته... فقد كان من الشقاء... من التعاسة...»

قطب روس جبينه قائلاً: «لا أظنك تعنين أن روس يؤذي ابنه من بعض النواحي. أليس كذلك؟»

هزت سارة رأسها على الفور قائلة: «كلا... ليس جسمانياً على كل حال، ولكن معنوياً بشكل غير متعمّد... إذ لا يبدو أن ثمة ما يربط بينهما على الإطلاق، وربما كان غراي فيليبس يعتبر ابنه مسؤولية إضافية على عاتقه عليه احتمال عبئها. فقد بدا عليه اهتمام أشدّ باجتماع كان عليه أن يحضره، من اهتمامه بإبنه... كما أنه طبعاً، هو غريب بالنسبة إلى روبرت ما دام لم يكن بينهما أي اتصال منذ ولادته...»

أضافت سالي: «خاصة، حسب قولك، إذا كانت أمه قد أوهمته بأن أباه شبح مخيف، فنشأ بذلك، على الخوف منه. أليس كذلك؟»

قال روس شارحاً وضع غراي: «ان التعامل مع هذا الوضع ليس سهلاً بالنسبة لأي رجل. وبالنسبة لمركز غراي فيليبس خاصة. فالصعوبة مضاعفة، ذلك أن هناك حديثاً عاماً عن الرغبة في تأميم الشركة. وغراي هو أكبر حامل لأسهمها، ولكن هناك أعضاء آخرين ممن يحملون أسهماً يبدو أنهم يحبذون تسليم الشركة إذ ان هذا يعطيهم أرباحاً سريعة. وغراي، بطبيعة الحال، يريد أن يحتفظ بملكية الشركة، ولهذا ثمة مداولات جمة بهذا الشأن، تدور خلف الكواليس، وأظن أن عليه في النهاية، أن يشتري من حملة الأسهم الآخرين، وهذا يعني كسب مبلغ هائل من المال. كلا، لا أحب أن أتصور نفسي في مكانه هذا بالنسبة لإبنه، في هذه اللحظة بالذات.»

وفي فراشها في تلك الليلة، ولأول مرة منذ مواجهتها الكئيبة التاريخية لرؤسائها، وجدت سارة أن انتقادهم هذا لها لم يكن هو الموضوع الذي كان يدور ويدور في رأسها مما منعها من الرقاد. إذ انها بدلاً من ذلك، كانت تستعيد كل ما مرّ معها بالنسبة إلى غراي فيليبس.

ما أقوى العقل البشري. إذ ان في امكانها، ودون أدنى مجهود، أن تتصوره بكل دقة... حتى أنها ترى اختلاف التعبيرات على وجهه، وتسمع صوته، وتتخيل كل إشارة ولمحة وحركة قام بها حتى كأنه هو معها بنفسه الآن.

وتقلبت في فراشها في محاولة ثائرة لإغماض عينيها،

ونفيه من ذهنها تماماً. إن ما قاله لها روس لا يهمها. فإنها ما زالت مقتنعة بأن في استطاعة غراي فيليبس أن يفعل أكثر مما فعل بالنسبة إلى ابنه، ذلك الطفل الصغير المسكين، الذي سرق منه الموت أحبابه... والذي انتقل فجأة، من بيئة ألفها وأحبها، إلى جوار شخص يبدو له معادياً ليرغم على العيش مع أب، أمضى هو حياته وهم يعلمونه أنه لا يحبه ولا يريده.

«إنني أكرهك.» لقد قالها ذلك الصبي لأبيه بكل عنف صبي خائف، وللحظة واحدة، خيّل إلى سارة أنها ترى شعوراً يلتهب في تلك العينين الزرقاوين الباردتي النظرات كالثلج. أما ماذا كان كنه ذلك الشعور، فهذا ما لم تدركه. ربما على الأكثر، كان غضباً نفاد صبر ولكنه لم يظهر أي نوع آخر من المشاعر... أو الدفء أو الحب.

ربما كانت مخطئة في أن تعد الصبي بالزيارة دون أن تحظى، قبل ذلك، بموافقة الأب... وربما فعلت هي هذا عمداً لأنها عرفت أنه لن يوافق، ولكن، كيف يمكنها أن تواجه نفسها لو أنها أدارت ظهرها، عمداً ودون اهتمام، لذلك الصبي الصغير، هازة كتفيها بأن أمره لا يهمها؟

كلا، ما كان في امكانها أن تفعل ذلك. إنه يناقض طبيعتها تماماً.

وأنهكها التعب أخيراً، فاستسلمت للرقاد.

قالت سالي بينما كانتا في المطبخ ترشفان القهوة: «اسمعي، لماذا لا تأخذين سيارتي؟ إنني لن أكون في حاجة إليها اليوم. وقد تحتاجينها أنت.»

سرّت سارة لهذا العرض، وأجابت: «حسناً، هذا إذا كنت

متأكدة من أنه ليس لديك مانع، مع أنني غير متأكدة مما إذا كنت سأجد المنزل، لقد قادنا الطريق الضيق إلى البوابة الخلفية...»

فقاطعتها سالي: «إن عندي خارطة للقرية. وليس من الصعب العثور على المنزل. سأحضر الخريطة لكي أريك.»

وعندما عادت سالي لتبسط الخريطة على مائدة المطبخ، أشارت إلى المنزل بفنجان القهوة الذي في يدها قائلة: «لقد كان جد غراي هو الذي ابتاع البيت. ولما كان والد غراي هو الأخ الأكبر، فقد كان هو وارث الاثنين، المنزل والأعمال، ولكنه كان في الجيش، وقد قتل أثناء الحرب عندما كان غراي صغيراً جداً. وهذا ما أخبرتني به السيدة ريتشاردز. ويبدو أن أمه تزوجت وذهبت لتعيش في أميركا تاركة غراي هنا، ليعيش في كنف جده، أما عمه فلم يتزوج. ومرة أخرى، كما تقول السيدة ريتشاردز، أرسل غراي إلى مدرسة داخلية ثم إلى الجامعة وهذا يعني أنه كان يمضي عطلاته فقط هنا، أثناء حداثته.»

كانت سارة تستمع إلى ابنة عمها، وقد قطبت جبينها. وشعرت، رغماً عنها، بعطف وألم واهتمام وهي تتصور حياة غراي فيليبس الموحشة تلك. ولكن تلك الحياة القاسية كان عليها أن تجعله أكثر عطفاً على ابنه وليس أقل. ولكنها عادت لتتذكر ما يقوله علم النفس بأن الرجل أو المرأة، يعاملان أولادهما نفس المعاملة السيئة التي سبق وعانيا منها في طفولتهما. وأحياناً يكون هذا بشكل متعمّد، ولكن الأغلب أنهما يكونان غير واعيين إلى أن تصرفهما هذا هو نابع عن ذلك الألم الدفين في أعماقهما، فهما لا يستطيعان

التخلص من الماضي والاستياء الكامن في عقلهما الباطني، من أن يريا طفلاً آخر، ابنهما، مستمتعاً بطفولة أسعد من طفولتهما.

أما إنكار أكثر الناس لهذه الحقيقة، فهذا غالباً، يكون ناشئاً إما عن الفزع وإما عن الغضب، فينفون ذلك على الفور حتى ولو علموا ان تصرفهم هذا إنما هو صادر عن غير وعي منهم.

أترى غراي فيليبس من هذا النوع؟ وهل تراه يستاء من سعادة ابنه، دون وعي منه؟

ولكن، هل تراها كانت تقفز إلى نتائج لا أساس لها من الصحة؟ لقد حذرت سارة نفسها، وهي تركز انتباهها على الخريطة، من أن تسمح لمشاعرها بأن تسيطر عليها ولكن ما يحتاجه روبرت الآن، ليس شخصاً يقوّي عنده كراهيته لأبيه وعدم ثقته به، بل إلى شخص يحاول برقة وهدوء، أن يشجعه على إنشاء رباط يشدّه إليه.

ولم تكن هذه مهمتها هي، فقد أنذرت نفسها بهذا بعد نصف ساعة وهي تركب سيارة سالي.

إن كل ما في وسعها عمله هو أن تسري عن روبرت قدر استطاعتها، ثم تقنعه بكل لطف بأن الهرب من البيت هو شيء في غاية الخطورة. ومن المؤسف أن غراي فيليبس لم يكلف نفسه عناء إيجاد امرأة أكثر عطفاً وتفهماً من السيدة جاكوبس لكي يسلمها أمر رعاية ابنه، ما دام هو نفسه لا يستطيع منح ابنه هذه العواطف والتسرية والحماية التي يتطلبها.

ووجدت مدخل المنزل بسهولة. وفتحت أمامها بوابة

كبيرة بشكل آلي حين توجهت بسيارتها نحو ممر مرصوف بالحصى.

كان المنظر الأمامي للمنزل يظهره أكثر اتساعاً مما سبق وتصورته في البداية وكان مبنياً على الطراز الاليزابيتي. وقادها الممر إلى حيث كان يوماً اصطبلات للخيل. وأوقفت سارة سيارتها هناك، ثم نزلت منها.

هل كان وقع خطواتها يصدر صوتاً عالياً، أم ان ذلك كان مجرد تصورات منها؟

سارت حول مقدمة المنزل، متوقفة بين الفينة والأخرى لتتأمل بإعجاب صفوف الأشجار التي كانت تمتد على جانبي الممر. وخلفها كان في امكانها أن ترى شكل بركة تتوسطها نافورة. وفكرت في أنه لا بد أن صيانة البيت والحديقة والاحتفاظ بحالة حسنة يكلف ثروة. وصعدت الدرج ثم جذبت حبل الجرس.

مرت فترة طويلة دون أن يحدث شيء، وأوشكت أن تتساءل بغضب عما إذا كان غراي فيليبس قد أبلغ السيدة جاكوبس بأن لا تفتح لها الباب، عندما فتح الباب إلى الحد الذي تسمح به السلسلة، لتسمع صوتاً ضعيفاً مألوفاً يقول: «أهذا أنت يا سارة؟»

سألته وهو يفتح لها الباب: «روبرت... أين هي السيدة جاكوبس؟»

أجابها وهي تدخل: «ذهبت إلى بيتها، قالت إنها لا تريد أن تعتني بولد مثلي وإنني أحطم أعصابها.» وبدت عليه التعاسة وهو يقول هذا.

كانت القاعة التي دخلت اليها منخفضة السقف، وكانت

الأرضية الخشبية مدهونة لامعة، إلى جانب مدفأة ضخمة موجودة في ركن الغرفة. كان كل شيء بالغ النظافة إنما جافاً نوعاً ما، ذلك أن الصندوق المصنوع من خشب السنديان والموضوع بجانب الجدار، كان بحاجة ماسة إلى إناء مليء بالأزهار، كما أن الأرض بحاجة إلى سجادة كثيرة الألوان. وكان السلم المكسو بخشب السنديان يلتف ليصعد إلى الطوابق العليا للمنزل، وكان ثمة نافذة قائمة عند منعطف السلم تدخل منها أشعة الشمس. ومع إعجابها بالقناديل الحديدية المعلقة من السقف، فقد تساءلت عن السبب الذي لم يفكر فيه أحد بوضع الوسائد على متكأ النافذة. وفكرت في كآبة منظر المنزل بالرغم من نظافته المتألقة.

سألته وهو يمسك بيدها يقودها باتجاه أحد الأبواب في القاعة: «هل أنت وحدك هنا؟»

أجاب: «نعم، لقد ذهب أبي إلى عمله.»

قالت: «كما أن السيدة جاكوبس قد تركت البيت، هل ستعود؟»

فهز رأسه قائلاً: «كلا، لقد قالت إنها لن تضع قدمها في هذا المنزل مرة أخرى، على الأقل ما دمت أنا هنا. قالت إن الأولاد هم مزعجون. وان هنالك الكثير من الأماكن يمكنها أن تشتغل فيها دون أن يكون عليها التحمل والصبر.» امتلأت فجأة عيناه دموعاً وهو يلتفت إليها قائلاً: «إن أبي سيخاصمني، أليس كذلك؟ ولكنه الذنب ليس ذنبي ان أهرقت الحليب. فقد تزحلقت على أرض المطبخ.»

شعرت سارة بمزيج من الغضب والاشمئزاز. كيف يمكن

لأي أب أن يجعل ابنه في عناية امرأة يبدو واضحاً أنها غير مناسبة لذلك، مثل السيدة جاكوبس هذه؟ وكيف يمكن لأية امرأة أن تترك طفلاً في السادسة من عمره، وحده في المنزل، ثم تخرج وهي تدرك بأن ليس ثمة من يرعاه؟ وذلك في الوقت الذي تعلم فيه بأنه ليس موضعاً للثقة؟

دفع روبرت باباً رأت سارة أنه يقود إلى المطبخ. وقطبت جبينها وهي ترى مستنقعاً من الحليب على الأرض الحجرية، وقد تناثرت شظايا الكأس الزجاجي في الأنحاء، وبدا واضحاً أن السيدة جاكوبس قد خرجت دون أن تكلف نفسها عناء تنظيف المكان.

طلبت من روبرت بهدوء، أن لا يقترب من شظايا الزجاج، ومن ثم ابتدأت بتنظيف المكان.

وأثناء عملها هذا، أخذ يخبرها، من بين دموعه، كيف اندلق الحليب أثناء محاولته سكبه في الطبق.

وكانت الثلاجة التي سبق وأحضر منها الحليب، تحتوي على مكان التثليج في أسفلها، ولهذا، كان مقبض الباب أعلى مما يستطيع أن يصل إليه صبي في السادسة، وعندما سمعته يصف لها كيف أحضر كرسياً ووضعه أمام الثلاجة لكي يصعد عليه ويفتحها، وذلك، كما يظهر، حين كانت السيدة جاكوبس جالسة لتتناول كوباً من الشاي، شعرت بالغضب من الاثنين، السيدة جاكوبس ووالد روبرت إلى درجة شعرت معها أن من حسن الحظ أن لم يكن واحد منهما حاضراً وإلا لأفرغت غضبها ذاك عليه.

لا بد أن امرأة مثل السيدة جاكوبس، تعرف جيداً ما يكمن من خطر من جراء إحضار صبي مثله كرسياً يصعد عليه

ليفتح باب الثلاجة، كما أنها تعرف جيداً أن مثل هذا الصبي الصغير لا ينبغي أن يسمح له بتحضير فطوره بنفسه.

ولم تشأ سارة أن تتطفل وتستغل براءته، ولكنها، مع هذا لم تتمالك نفسها من أن تسأله عن السبب الذي منع السيدة جاكوبس من أن تسكب له الحليب بنفسها، وأجاب: «لقد قالت إن إطعامي ليس من عملها. وإلى جانب هذا فقد كانت مستاءة جداً، وقالت إنني لا أستحق فطوره بعد الذي فعلته أمس. قالت إنه كان يجب أن أجلد بالسوط وأسجن في غرفتي.» وأظلم وجهه بالخوف وهو يقول: «إنك لن... لن تخبري أبي عن الحليب. أليس كذلك يا سارة؟»

أجابت تطمئنه: «لن أفعل إذا أنت لم تطلب مني ذلك.» ولكنها في أعماقها، تتمنى لو يعرف غراي فيليبس عن رأيها في الرجل الذي يترك ابنه بين يدي امرأة مثل السيدة جاكوبس.

ودنا موعد الغداء، وعندما اكتشفت أن روبرت لم يتناول فطوره بسبب ما حدث، فتحت الثلاجة ثم نظرت بازدراء إلى محتوياتها القليلة والتي لم تكن تحتوي أي شيء مغذٍ لطفل ينمو... لم يكن ثمة فاكهة ولا خضر طازجة ولا شيء على الإطلاق يمكن أن يشكل وجبة صحية متوازنة.

وكان في وعاء الخبز نصف رغيف أبيض لا يبعث منظره على الشهية، ولكن وعاء البسكويت كان ممتلئاً، واستدارت سارة باشمئزاز، وقالت بحزم: «روبرت، إننا أنا وأنت، سنخرج للتسوق.»

كان الجو دافئاً مما سمح لروبرت بالخروج بالقميص والشورت. ولكن، قبل أن يخرجا وجدت سارة مغلفاً في

محفظتها، فكتبت عليه ملحوظة قصيرة تركتها على مائدة المطبخ لاحتمال أن تكون السيدة جاكوبس قد أبلغت السيد غراي فيليبس بتركها روبرت وحده، ومن ثم عودة الأب لتفقده.

ولما لم يكن عندها مفاتيح للأبواب، فقد كان عليها أن تترك الباب الخلفي مفتوحاً. وبينما ابتعدا بالسيارة، تمنت أن لا يقتحم أحد المنزل أثناء غيابهما.

ولم يكن ثمة حاجة بها إلى الوصول إلى لودلو بعد أن وجدت متجراً قريباً يمكنها أن تشتري منه ما تحتاجه.

وبعد أن أوقفت السيارة، وأحضرت العربة داخل المتجر لتضع فيها الاغراض، سألت روبرت عما يحب أن يأكل، وكانت مسرورة حين أدركت من أجوبته على أسئلتها، أن أمه كانت حريصة جداً على تغذيته جيداً.

على كل حال، عندما أتت على سيرة أمه، هز رأسه قائلاً: «ولكنني لم أعش مع أمي وتوم. كنت أعيش مع جدتي. ذلك أنه لم يكن لي مكان في منزل أمي، هذا إلى أن...» وعبس وهو يجر قدميه على الأرض، ويقول بصوت أجش: «لم يكن توم يحبني، ولكن والد بيتر كان يحبه.»

وتوقفت سارة عن تفحص محتويات الرفوف، واستدارت إليه تسأله: «ومن هو بيتر هذا؟»

فأجاب روبرت: «كان رفيقي في المدرسة، وهو يعيش مع أمه وأبيه. وكان أبوه يلعب معه ويعلمه لعبة كرة القدم.» وبان الحسد على روبرت وهو يقول هذا.

يا للطفل المسكين، وشعرت بالرغبة في حمله وهدهدته والقول له إن الذنب ليس ذنبه إذا كان سيىء الحظ في عالم

الكبار هذا. لقد كان في امكانها أن ترى الخوف في عينيه، إذ كان يعتقد أن الذنب ذنبه في كراهية صديق أمه وأبيه بعد ذلك، له.

بدا لها تصرف أمه غريباً، إذ بعد تكبدها كل ذلك العناء للحصول على الوصاية الكاملة على ابنها، ومنع أبيه من رؤيته، إذا بها تسمح له بأن يعيش مع جدته بصورة دائمة.

وكانت ما تزال تفكر عابسة، في هذا، عندما أخذت تنعم النظر في الرفوف، كانت تحمل الكثير من النقود في حقيبتها، أحضرتها معها عندما جاءت إلى القرية ولم تجد مجالاً لإنفاقها، وفكرت شاكرة في كرم إبنة عمها. لقد كان غراي فيليبس حسب قول سالي وروس، رجلاً ثرياً وبإمكانه بكل تاكيد، أن يوفر لإبنه التغذية المناسبة، ولهذا لم يكن بها حاجة إلى صرف نقودها.

إنما كانت تعجب من نوع وتصرف مدبرة المنزل تلك التي كانت تطعم رجلاً ناضجاً وطفلاً ينمو، وجبات خفيفة جاهزة لا تعطى إلا في حالات الطوارىء حيث يكون الطبخ مستحيلاً...

وعندما سألت روبرت عما إذا كان يحب السمك، لم تشأ أن تفكر في ما عسى أن يفكر به غراي تجاه تدخلها هذا في حياتهما.

وعندما انتهت من التسوّق، اتجهت وروبرت، إلى السيارة وكان هو أثناء ذلك، يتحدث إليها عن جدته.

شعرت سارة بمبلغ افتقاده لجدته تلك، والذي يفوق كما يبدو، افتقاده أمه. ولكن، لو كان قد عاش مع جدته... فهذا يفسر ذلك الجو القديم الذي يحوطه ويجعله يتصرف

ويتحدث كما يفعل كبار السن، بعيداً عن سلوك وتصرفات الأولاد الذين من سنه.

وعندما دخلا المنزل، شعرت بالارتياح إذ رأت أنه لم يدخل المنزل في غيابهما أحد، كما أن السيدة جاكوبس لم تغير فكرها وتعود.

أليس لهذه المرأة شعور بالمسؤولية يمنعها من أن تترك طفلاً في السادسة، وحده تماماً؟

وبعد أن صنعت لروبرت بعض الطعام، وجعلته يغسل طبقه، سألته عن الوقت الذي اعتاد فيه أبوه أن يعود إلى المنزل من عمله، فقد كانت تعرف أنها لا يمكن أن تترك روبرت وحده مطلقاً، وهذا يعني أن عليها أن تبقى معه إلى حين عودة أبيه.

وهز روبرت كتفيه وهو يقول إن أباه يعود في أوقات غير محددة ومختلفة. وازداد فزعها وهي تدرك من أحاديث الصبي المتنوعة أن السيدة جاكوبس كانت تتركه يحضر عشاءه بنفسه ثم يذهب إلى سريره، ويظهر أنها كانت تهدده بأنه سيقع في متاعب خطيرة إذا عاد أبوه ووجده مستيقظاً.

ويبدو أن مدبرة المنزل كانت تغذي خوف الصبي من أبيه بتهديده به على الدوام. أما سارة، مع غضبها الدائم على تلك المرأة، فقد كان غضبها على الأب نفسه أشدّ، إذ ان أي شخص عنده ذرة من العقل، في إمكانه أن يعرف ما الذي يجري في بيته... وهذا يعني إما أن غراي فيليبس لا يريد أن يزعج نفسه بشأن ابنه، وإما، وهذا هو الأسوأ، أنه لا يهتم به.

وبعد ان غسلت أطباق الغداء، هي وروبرت، اتصلت

هاتفياً بسالي وأعلمتها بحقيقة الوضع... مضيفة أنها تشعر بأن عليها أن تمكث مع الصبي إلى حين عودة والده.

ووافقتها سالي بحزم قائلة: «نعم، طبعاً عليك أن تبقي.» ونفت أن يكون في احتجاز سيارتها عند سارة أي مضايقة لها. وعندما أخبرتها سارة كيف وجدت المنزل حين وصلت، قالت سالي: «حسناً، إن هذا لا يدهشني كثيراً. فقد كانت السيدة ريتشاردز هنا هذا الصباح، وكانت تقول إن أسوأ عمل يمكن أن تقوم به السيدة جاكوبس هو العناية بطفل. ويبدو أنها تكره الأطفال.»

وبعد أن أعادت سارة سماعة الهاتف إلى مكانها، فكرت في أن غراي فيليبس، بصفته ابن هذه المنطقة، لا بد قد سبق وسمع بصيت مدبرة منزله هذه، ومع هذا ترك لها أمر العناية بولده.

ولم تشأ سارة أن تبتعد كثيراً عن المنزل لاحتمال عودة غراي فيليبس، ولهذا أمضت طيلة بعد الظهر مع روبرت في الحديقة.

وكان هو ولداً ذكياً لولا زيادة في الحساسية، وحاجة إلى نظرة أكثر صحة ونضجاً إلى الحياة، وربما كان هذا لعدم وجود رجل في حياته يجعله يقتدي به.

كانت سارة تتأمل في كل هذا، وهو يحدثها بصراحة عن حياته قبل أن يأتي ليعيش مع أبيه، وتأكدت من أنه كان يعيش مع جدته وليس مع أمه، وهذا يعني أنه لم يكن يرى أمه كثيراً.

وعند السادسة مساء دخلا المنزل، حيث ذهب هو مباشرة، حسب تعليماتها إلى الحمام. بينما أخذت هي تعد

العشاء وأصر هو عليها أن تدخل معه، ففعلت ذلك بشيء من النفور إذ لم تشأ أن يراها غراي فيليبس، إذا حدث وعاد فجأة، ليظنها تجول في أنحاء المنزل متطفلة.

ولهذا السبب، حرصت على البقاء في المطبخ، مقاومة الرغبة في أن تفتح الأبواب المغلقة لترى ما وراءها.

ولكن، ها هو ذا روبرت يتوسل إليها مصراً على عدم الدخول إلى الحمام إلا إذا صعدت معه إلى الأعلى، وهكذا اضطرت إلى الصعود معه إلى الطابق الأعلى حيث وجدت نفسها في قاعة فسيحة ذات أرض خشبية لامعة ولوحات على الجدارن. وكان عند الجدار صندوق آخر من خشب السنديان عارياً من أية لمسة دافئة هو الآخر كمثيله في الطابق الأسفل، وتذكرت كثرة الزهور في الحديقة، وتمنت لو كان في استطاعتها احضار بعضها إلى المنزل لكي تضفي رونقاً وإشراقاً على هذا الجو الكئيب.

ووجدت ممرين شدّ روبرت يدها إلى أحدهما حيث توقف في نهايته أمام باب وفتحه.

وكانت غرفة نومه فسيحة، ومؤثثة بشكل جيد بالنسبة إلى صبي في سنه، وكانت هنالك خزانة كبيرة للألعاب. ومكتب وكرسي، وسرير مريح. وخلف غرفة النوم كان هنالك باب اخبرها روبرت أنه حمامه الخاص.

كان الحمام مجهزاً جيداً، يحوي حوضاً ورشاشة. ولكن كان هنالك أقذار على حافة الحوض ومناشف مبللة ملقاة على الأرض.

قال عندما رأى سارة تنظر إلى المناشف تلك: «السيدة جاكوبس قالت إنها لن تنظف الحمام لأنني ولد رديء.»

واكمدَّ وجهه فجأة وهو يقول باكياً: «عند جدتي كان عندي اشيائي الخاصة في الحمام. ضفادعي وزورقي. ولكن السيدة جاكوبس رمتها كلها بعيداً، قائلة إن هذه للأطفال الصغار.»

وكان قلب سارة يتمزق ألماً لأجله، من ناحية، وسخطاً على تلك المرأة الخالية من أي عطف أو تفهم من ناحية أخرى.

قالت له: «لا بأس. ربما نصنع معاً زورقاً ورقياً للإبحار هذه الليلة، مع أنه لن يطفو جيداً.»

وتألق وجه روبرت حالاً وهو يسألها: «أيمكننا أن نصنع هذا حقاً؟»

أجابت: «نعم إذا وجدنا ورقاً.»

ووجم هو على الفور ثم قال: «ليس عندي ورق، لقد اخذتها مني كلها السيدة جاكوبس قائلة إنها تجعل المكان يعج بالفوضى. يوجد ورق في المكتب يمكننا النزول وإحضاره.»

وترددت هي، ذلك أن آخر شيء كانت تريده هو التجوال في بيوت الآخرين، إذ كانت هي نفسها تكره أن يجول شخص غريب في منزلها ويطلع على خصوصياتها. ولكنها، مع هذا، وعدت روبرت بذلك، هذا إذا كان يعلم مكان الورق...

كان المكتب، كما يدعوه هو، أشبه بمكتبة صغيرة، تغطي جدرانها رفوف مرصوفة بالكتب المجلدة بالجلد.

وكان ثمة مكتب ضخم يحتل المكان. وكان الكمبيوتر الذي يعلوه يبدو شاذاً في غير موضعه.

كانت هناك أيضاً نافذتان كبيرتان بارزتان تشرفان على الحديقة. وكانت المتكآت في النافذتين مكسوة بقماش دمشقي باهت اللون. وقد أضاف هذا القماش لمسة دافئة إلى جو المكتب الصارم ذاك.

كان الورق، كما يبدو، محفوظاً في الدرج الأسفل من المكتب. ولكن عندما حاول روبرت فتحه، لم يستطع إذ كان ثقيلاً بالنسبة له.

وبشيء من التردد، تقدمت سارة إلى جانبه تساعده في جذب الدرج.

«ما الذي يجري هنا بحق الجحيم؟»

وجمد الدم في عروق سارة وهي تسمع هذا السؤال الغاضب، بينما كان روبرت يزحف إلى جانبها حيث أن غضب أبيه كان يشملهما معاً.

واستدارت سارة ببطء وقد انتابها شعور اللص الذي ضبط بسرقة، متمنية لو كانت واقفة وليست جالسة على الأرض. فهذا لم يكن وضعاً مناسباً للدفاع عن نفسها، وطبعاً ليس وضعاً مناسباً لمواجهة أي انسان... خصوصاً إذا كان هذا الانسان واقفاً عند رأسها مشرفاً عليها وهو يحدق فيها عابساً وثائراً. وقد بدا عليه أنه يضع أسوأ الاحتمالات لما تفعل.

واخترق الصمت صوت روبرت ضعيفاً متردداً وهو يقول: «كنا نفتش عن ورق نصنع منه زورقاً نضعه في حوض الحمام.»

وتركزت أنظار الاثنين عليه إنما بتعبيرات مختلفة تماماً. فقد كانت نظرات سارة رقيقة ناعمة، وقد مدت يدها

تلقائياً تلمس وجنته، لكي تمنحه شيئاً من التسرية والتطمين، بينما نظرات أبيه كانت تحمل ما لا يحتمل المزيد من الضيق والعبوس.

استدار غراي فيليبس إلى سارة يسألها: «كنتم ماذا؟ هل عندك مانع من أن توضحي لي ما الذي يجري هنا؟ وأين هي السيدة جاكوبس؟ كان المفروض أن تبقى مع روبرت إلى حين عودتي.»

شعرت سارة بروبرت يرتجف بجانبها إذ كان يخاف أن يلومه أبوه لرحيل مدبرة المنزل.

ودون أن تسمح لنفسها بالتفكير في ردة فعل غراي فيليبس تجاه ما كانت تفعله، لمست ذراع روبرت، برقة وهي تقول له: «روبي، هل لك أن تصعد إلى غرفتك وتتهيأ للنوم ريثما أتحدث مع أبيك؟»

وكان سرور روبي بالغاً لينفذ ما طلبته منه، وسرعان ما كان يقفز واقفاً على قدميه ثم يندفع راكضاً نحو الباب، ومنه إلى الطابق الأعلى.

وعندما تأكدت من ابتعاده عن مدى السمع، وقفت على قدميها. وكانت قد خلعت حذاءها عندما جلست على الأرض، وكان الآن على مسافة متر منها. وقفت بثبات وهي ترفع ذقنها، متمنية في صميمها، لو كانت تلبس حذاءها لتبدو اكثر طولاً ببضع إنشات، وكان التصميم والتحدي يمتزجان في نظراتها التي ألقتها على الرجل الذي وقف يراقبها وهو ينتظر.

وكان في صمته من الرهبة اكثر من غضبه. ولكن لم يكن ثمة سبب يجعلها تخاف منه. فهو، قبل كل شيء، كان

الشخص المسؤول عن روبرت... الذي تركه وحده في المنزل دون اشراف شخص كبير.

واراحها التفكير في هذا، وقالت: «يبدو أن السيدة جاكوبس قد رحلت...»

الفصل الثالث

كان قلب سارة يخفق بسرعة، وساد صمت طويل طويل، قبل أن يجيب غراي فيليبس على ما أعلنته. ولكن أثناء هذه المدة، كانت الرسالة الذهنية التي مرت بين الاثنين أشبه بصندوق مفرقعات نارية. وحتى قبل أن يسألها بوحشية: «ماذا؟» علمت سارة أنه كان يلومها على رحيل مدبرة المنزل.

قالت له بسرعة: «لقد رحلت قبل وصولي.» وخوفاً من أن يحول لومه إلى روبرت، أضافت: «بصفتك والد روبرت، فإن أقل شيء كان عليك أن تقوم به، هو أن تتأكد من أنك قد تركت ابنك في عهدة امرأة تعرف معنى المسؤولية، وليس عند امرأة يعرف الجميع أنها لا تطيق الأطفال.»

ورأت من التعبير الذي بدا عليه أن كلماتها أصابت المرمى. فقد ضاقت عيناه ولمعت فيهما الكراهية، ولكن قبل أن يقول شيئاً، تابعت هي كلامها بغضب: «هل تعلم أنها لم تكن تغذيه جيداً؟ وأنه لم يكن قد تناول فطوره؟ لم يكن هناك أي شيء من الطعام في المنزل يناسب ولداً في مثل سنه، و...»

قاطعها قائلاً: «لقد كنت مشغولة، أليس كذلك؟»

أخرستها كلماته الهادئة المليئة بالحقد، كذلك ما نطقت به عيناه دون أن يقوله. لقد هبطت بها نظراته إلى أدنى مستوى للطفل، وغمرتها بشعور المهانة والندم. ما الذي

كان عليها أن تفعل؟ أرادت أن تتحداه، هل تترك روبرت جائعاً؟ ولكن كبرياءها منعها من الدفاع عن نفسها. فقد كان الذنب في كل ذلك، ذنبه هو وليس ذنبها.

قال لها: «ما دمت شديدة الاهتمام بسعادة روبرت إلى هذا الحد، فإن الشيء المعقول الذي كان عليك القيام به، هو أن تتصلي بي هاتفياً.»

قالت وهي تهتز: «ربما لو كنت أعلم مكانك لاتصلت بك.»

فقال: «إن روبرت يعرف رقم هاتف مكتبي.» وشعرت بوجنتيها تتوهجان، كان عليها أن تفكر في ذلك... وعضت على شفتها متمنية، بعد فوات الأوان، لو لم تكن قد اندفعت بمثل ذلك التهور وتلك المشاعر القوية، وهذه الأخيرة لا يمكن لهذا الرجل أن يفهمها أبداً.

كانت رغبتها الأولى هي الترفيه عن روبرت وتسليته. ولكنها الآن، كل ما استطاعت أن تقوله دفاعاً عن نفسها بصوت ضعيف مرتجف، هو: «ظننت أنني أقوم بعمل صائب.»

تساءلت بغضب ويأس عما جعل هذا يحدث؟ وكيف تبادلا الأمكنة، لتصبح هي في قفص الاتهام ويصبح هو القاضي المدين؟ ألم يكن هو المذنب؟ بينما هي قد تصرفت بشكل غير لائق لكي تحمي روبرت؟

كل ما كان بإمكانها أن تدافع به عن نفسها، هو أن تقذفه بما كانت تعلم أن اعلانه هو تحد خطر.

قالت: «حتى ولو كنت أعلم رقم هاتفك، فإنه يبدو أن روبرت...»

وسكتت فجأة إذ لم تتمكن من حمل نفسها على اتهامه

بأنه يحمل إبنه على الخوف منه حتى ولو كانت تعلم أنها الحقيقة.

حساسة اكثر من اللازم... شديدة المحافظة على شعور الآخرين إلى حد الألم... ولأجل هذه الأخطاء، هي أضعف من أن تكون معلمة جيدة. كان هذا ما قاله عنها رؤساؤها. وتجاوبت الآن، إنتقاداتهم هذه في أذنيها لتخبرها بأن لها كل الحق والصلاحية لاتهام غراي فيليبس، على الأقل، بعدم إدراكه تأثير حدة طباعه البالغة على شخصية ابنه، لقد برأته من تعمد تقوية خوف إبنه منه، ولكن، كان عدم انتباهه إلى تعاسة وشقاء الصبي الصغير، يعادل عندها جريمة كبرى.

والآن، وهي تلتزم صمتاً غير مريح، بدا أن غراي فيليبس لم يشاركها الفزع من استعمال كلمات لم تجد من نفسها الشجاعة لتتفوه بها، لأنه أكمل جملتها عابساً: «يبدو أن روبرت ماذا؟ اكثر خوفاً من أن يطمئنه حضوري؟ هل هذا ما كنت تريدين قوله؟»

والتوى فمه بازدراء وهو يضيف قائلاً: «دعيني أعطيك نصيحة صغيرة، يا آنسة مايرز. إذا أنت ابتدأت بانتقاد شخص ما، فلا تتراجعي من منتصف الطريق، إذ انك، بعملك هذا، تثبتين أن ثقتك بما تقولين غير تامة.»

ردت هي على الفور دون أن تهتم، هذه المرة، بإحساسه: «هذا غير صحيح، إن روبرت يخافك، ولولا هذا...»

وسكتت مرة أخرى، وأيضاً اكمل لها جملتها قائلاً: «لولا هذا، للجأ إليّ أنا لأسرّي عنه وأطمئنه، وليس إليك... أليس هذا ما كنت تريدين قوله؟ ألم يخطر في بالك أن روبرت،

حيث أنه اعتاد فقط على معاشرة النساء، ربما لم يكن يخاف مني وإنما، بدلاً من ذلك، يجد صعوبة في معرفة كيفية التجاوب معي؟»

وأدركت سارة أن احمرار وجهها فضحها، ومرة أخرى، لعنت في نفسها، ردة فعلها العاطفي للوضع.

قالت بفتور: «ولكن والدة روبرت كانت... كان عندها.»

قاطعها: «كان عندها حبيب؟ في الواقع كان عندها الكثير منهم.» ونظر إلى وجهها وهو يبتسم بقسوة، وهو يتابع: «يبدو أنك صدمت، ولكن هذه هي الحقيقة. ولكن، ليس من المفروض أن نذكر الحقيقة السيئة عن الموتى حديثاً، أليس كذلك؟ علينا أن نركز على صفاتهم الحسنة.»

بانت المرارة على وجهه، وتابع يقول: «كما أعلم، لم يكن لزوجتي السابقة، أية صفات حسنة. ولمعلوماتك الخاصة، فإن روبرت لم يعش مع أمه، بل مع جدته. لقد لاحقتني في المحاكم لتضمن عدم حقي في رؤية إبني، لتضمن أنه لن يكون لي مكان حقيقي في حياته، وإذا بها، بعد ذلك وبكل بساطة، تسلمه إلى جدته ليعيش معها، وهكذا ترين أن أنجيلا لم تحب روبرت. ذلك أنها لم تكن قادرة على أن تحب أي إنسان عدا نفسها.»

وسكت فجأة وهو يمرر أصابعه في شعره وقد بدا عليه الضعف والارتباك وكأنه هو نفسه كان فزعاً مما قاله بقدر ما كانت هي.

وبدا لسارة في تلك اللحظة، أنه لم يعد خصماً لها... ولا أباً لصبي ضعيف رعديد، وإنما مجرد رجل، ورجل مرهق. لم يكن من السهل عليه أن يصبح وحده مسؤولاً عن صبي،

رغم أبوته له، كان غريباً تماماً عنه... صبي هو، مهما يكن، آتياً من نكبة فقدانه لكل أولئك الذين كان يألفهم ويعيش معهم.

ولكن... أن يترك روبرت في عهدة امرأة مثل السيدة جاكوبس... إن غراي فيليبس هو رجل ثري قادر تماماً على تزويد ابنه بمربية متعلمة حسنة التدبير.

وكأنما قرأ افكارها، تقريباً، قال لها: «لقد أمضيت معظم هذا النهار في مقابلة مختلف المربيات لأجل روبرت، ولكن دون نجاح حتى الآن.» وضم شفتيه بقوة. وتذكرت سارة ما سبق وقاله روس عن الصعوبات التي يلقاها غراي في أيجاد مربية مناسبة لإبنه. وتابع قائلاً: «وسأمضي نهار الغد متابعاً نفس الموضوع راجياً أن تكون النتيجة أفضل.»

ومع أنها كانت تعلم أن هذا ليس من شأنها، فانها لم تستطع منع نفسها من أن تسأله: «مادام من ستستخدمها، ستعتني بروبرت، أليس من الأفضل أن تسمح له بأن يكون له رأي في الاختيار النهائي؟»

سألها مشمئزاً: «لأدعه يختار امرأة شقراء مثل والدته؟»

وانتاب سارة شعور غريب وهي تستمع إليه. وفي ما بعد، في محاولة لتحليل كنه ذلك الشعور، أحست بالضيق وهي ترى أنه إن لم يكن الغيرة، فهو قريب منها. أما لماذا تشعر بالغيرة من والدة روبرت الميتة، فهذا ما لم تستطع تفسيره، إلا إذا كان السبب هو أن غراي، من كلماته المليئة بالمرارة، قد رسم لها صورة مختلفة، كلياً عما كانت عليه هي نفسها، ومع أن كلماته ظاهرياً، كانت مليئة بالتحقير

والإزدراء لها كإمرأة، إلا أنها استبعدت على الفور هذا النقد الظاهري. استنتجت من وصف غراي فيليبس أن زوجته السابقة كانت مفرطة الجمال... مفرطة الأنوثة وربما مدللة وبالغة العناد والتصلب كما تكون أمثال هذه النساء عادة، إذ يعتبرن تقبل غزل الرجال وتهافتهم وملاحقتهن برغباتهم، هو حق من حقوقهن.

ولم ينفع تطمينها لنفسها بأن ليس ثمة رجل يمكن أن يفكر بها بهذه الطريقة، ذلك أن مظهرها لا يشجع أي رجل على أن يعاملها كدمية جميلة فارغة العقل، وهذا ما كانت تحسبه من حسن حظها. ومع ذلك، فقد كان هناك جزء مجهول من نفسها أحس على الفور بالحسرة إلى درجة أذهلتها، وذلك للفرق بينها، وبين تلك المرأة التي أخذ غراي فيليبس ينعتها بتلك الصفات الشائنة.

حتى الآن، كل الدلائل كانت تشير إلى أن زوجته هي امرأة يكن لها كل ازدراء وتحقير، إلى حد عنيف. ولكن، أليس من المعقول، أن رجلاً في مثل ذكائه، لقي ما لقيه من زواجه وما تبعه من طلاق، وجد نفسه مرغماً على تبني هذه المشاعر التي أحس أن الآخرين يتوقعون منه أن يشعر بها نحو زوجته السابقة، وذلك في الوقت الذي كان مايزال في الأعماق...؟

كان ماذا؟ ما يزال يحبها؟ وماذا لو كان هذا؟ كانت سارة تسأل نفسها بكل هذه الاسئلة، ذلك أن شعوره نحو زوجته السابقة لا يعنيها بشيء وإن يكن هذا قد يفسر نوع سلوكه نحو ابنه.

وأخذت تستوعب ظنونها هذه ببطء، معترفة لنفسها

بأن هذا الشعور القوي منها نحو رجل هو غريب تماماً عنها، يسبب لها الضيق، كما يسبب لها ذلك غراي فيليبس نفسه.

وبدون إرادة منها، أرغمت نفسها على مواجهة الحقيقة التي كانت تتهرب منها منذ مقابلتها الأولى له. لقد كان مختلفاً عن كل الرجال الذين عرفتهم... وكان لا بد لها من الاعتراف، وقد تملكها الضيق، بأنه كرجل، يجذبها كما لم يجذبها غيره من قبل. لقد صادفت رجالاً اكثر وسامة منه، وأمضت سنوات المراهقة تتشوق إلى نجوم السينما والغناء ممن لا يمكنها الوصول إليهم، ولكن هذه هي المرة الأولى التي تشعر فيها نحو رجل بمثل هذا الشعور، وأزعجها هذا وسبب لها الكآبة. ذلك أن تصرفه نحوها ونحو إبنه يدل بجلاء على أنه بعيد كل البعد عن كل الصفات التي كانت تعتقد أنها تجذبها في الرجل.

فقد كان بعيداً عن الرقة واللطف والاهتمام بشعور الآخرين. لم تبدر منه لمحة تشير إلى أنه قد استوعب الدروس المفترضة على أن جنسه قد استوعبها خلال العقود الماضية، ليخرج من تلك المرحلة التعليمية، انساناً رقيق الشعور، مفكراً، جعله التواضع يدرك كم أخطأ جنسه بحق الجنس الآخر على مدى الأجيال، فيكون الآن متلهفاً إلى محو تلك الأخطاء.

وبعد، فإنها لا يمكن أن تتهمه بالعدوانية. الضيق، نفاد الصبر، الغضب... هذه هي كل المشاعر التي رأتها منه، والآن، وهي تقف أمامه، كانت تشعر، بكثير من عدم الإرتياح، بتطفلها هذا في منزله، معترفة، بينها وبين

نفسها، بما يمكن أن يكون عليه شعورها وهي تعود إلى منزلها، بعد نهار متعب، لتجد شخصاً غريباً قد اقتحم المنزل في غيابها.

جعلتها هذه المشاعر تقول بسرعة: «من الأفضل... من الأفضل أن أذهب الآن بعد أن عدت أنت...»

قالت ذلك وهي تتجه نحو الباب متلهفة فجأة، إلى الإبتعاد عنه رغم إدراكها أنه غير مسؤول عن تأثيره ذاك عليها، وأن الذنب ذنبها هي في ذلك، إذ تسمح لنفسها بالإنجذاب إلى رجل هو غافل عنها تماماً.

قال: «دون أن تقولي وداعاً لروبرت؟»

وتوقفت لدى سماعها هذه الكلمات الجافة الساخرة تأتي من خلفها، وقد توهج وجهها. وما جعل الأمر أسوأ هو أنها حقاً، نسيت كل شيء عن الصبي الصغير، وذلك في خضم مشاعرها ومخاوفها تلك.

وما لبثت ان قالت بلهجة دفاعية: «كلا... كلا طبعاً. كنت على وشك أن أسألك إذا كان لديك مانع من ان أصعد إلى غرفته لأودعه.»

وزاد من ارتباكها وشعورها بالذنب، تلك النظرة التي ألقاها عليها مصحوبة بارتفاع حاجبيه والتواء فمه تهكماً.

قال ساخراً: «كوني ضيفتي. وأنا متأكد من أنك لست في حاجة إلى أن أريك الطريق إلى غرفتي.»

وأرادت أن تحتج... أن توضح له أنها لم تستغل غيابه وبراءة روبرت لتنتهك حرمة منزله، ولكنها كانت تعلم ان احتجاجها هذا سيقابل فقط بجدار من السخرية والإزدراء. وبجانب هذا، لماذا عليها أن توضح أو تعتذر؟ يكفي

أنها تعرف الحقيقة، حتى ولو رفض هو قبولها.

اتجهت نحو الباب وهي ترتجف، ووقفت تنتظر منه أن يفسح لها الطريق لتمر، وعندما فعل ذلك، اكتشفت أنها كانت تحبس أنفاسها وكأنها كانت تشعر بالخوف من أن تحتك به سهواً. فهي تحبس أنفاسها لتنقص من حجم جسمها، ولكن، ما أن اقتربت منه حتى ازداد ابتعاداً عنها مانحاً إياها مساحة وافرة لكي تمرّ. كما أنه لم يحاول مرافقتها في صعودها إلى غرفة ابنه.

كان روبرت مايزال في الحمام. وارتفعت نظراته بلهفة وهي تدخل، ليبدو الإرتياح على ملامحه لرؤيتها. أخبرته أنها ستغادر الآن. وانعصر قلبها لنظراته تلك وهو يتوسل إليها أن تبقى.

وكحل وسط، بقيت إلى أن انتهى من الاستحمام، ثم ساعدته على تنشيف جسمه وارتداء بيجاما نظيفة وجدتها في أحد الأدراج. ولاحظت أن البيجاما جديدة مازالت بطاقة المتجر مشبوكة فيها. وعندما نزعت عنها البطاقة تلك، قال روبرت ببراءة: «لقد أرادت أمي أن تشتري لي بيجاما جديدة، ولكنها لم تكن تملك ثمنها.»

قطبت سارة جبينها وهي تساعده على ارتدائها. كانت تظن بأن أمه وجدّته كانتا ميسورتين مالياً. فهل كانت مخطئة في ظنها هذا، أم أن والدة روبرت كانت من الأنانية والإنشغال بنفسها بحيث لم تكن تفكر في أن ابنها الذي كان ينمو، هو بحاجة إلى ثياب جديدة، مدعية لإهمالها هذا بالحاجة إلى النقود؟

وعندما وضعته في فراشه، مطمئنة إلى راحته التامة،

عند ذلك فقط، شعرت سارة أن بإمكانها أن تذهب.

وعندما نزلت السلم، ألقت نظرة على ساعتها، لتدرك وقد انتابها شعور بالذنب، أنها امضت مع روبرت وقتاً طويلاً حقاً.

وفي الردهة، كانت الأبواب جميعها مغلقة. هل معنى هذا أن غراي فيليبس كان يريد منها أن تخرج دون أن تفرض عليه حضورها مرة أخرى؟ هذا محتمل جداً. وعلى كل حال، فقد أوضح رأيه في وجودها في منزله، تماماً.

وكانت على وشك أن تفتح الباب الأمامي، عندما سمعته يقول من ورائها: «ألا تهتمين بإلقاء تحية الوداع، يا سارة؟»

كان في صوته الكثير من التهكم والانتقاد والإدانة لسلوكها هذا إذ تتعمد الخروج دون مراعاة أبسط قواعد المدنية، مما جعلها تشعر بنفس الإحساس بالذنب وهو يدخل ليراها تعبث في درج مكتبه. وكما حدث في المرة الأولى، توهج وجهها احمراراً امتد إلى جذور شعرها.

وأجابته بعصبية: «إنني لم... لم أشأ أن أزعجك.»

فقال: «نعم. إنني متأكد من هذا.» كان ينظر إليها متأملاً، ولسبب ما، استحال ارتباكها إلى شعور خانق بوجوده بقربها وكان شيئاً ما مس من نفسها شعوراً عميقاً جعل جسدها يهتز تجاوباً مع هذا الوجود.

قال برقة وهو ما زال ينظر إليها: «من المؤسف انك لم تفكري بذلك من قبل، أليس كذلك؟»

ثم تقدم نحوها، مرغماً إياها على التراجع خطوة إلى الوراء لكي تبقي مسافة بينهما.

وفي لحظة خجل لا معنى لها، ظنت أنه سيمسك بها لكي... وازدردت ريقها وقد ارتفعت دقات قلبها وهي تتصور شعورها في ما لو أخذها بين ذراعيه...

وأغمضت عينيها محاولة طرد هذه الأفكار من ذهنها، وبينما كانتا مغمضتين، سمعت صوت فتح مزلاج الباب الأمامي.

وأدركت أنه لم يكن ينوي أن يلمسها على الإطلاق، ولكنه كان، فقط يريد أن يفتح الباب لكي تخرج كأي مضيف مهذب وهو يودع ضيفه وأرسل إدراكها هذا موجة ألم وتحقير لأحاسيسها المرهفة.

وعندما ابتدأ يفتح لها الباب، حاولت أن تندفع منه باستماتة، متلهفة إلى الابتعاد، ليس عنه فقط، ولكن عن أحاسيسها الغبية تلك، ولكنها، لسوء الحظ، أخطأت في تقدير اتساع فتحة الباب، وذلك في غمرة اندفاعها، فكان أن احتك جسدها بحافة مصراع الباب ما جعلها تطلق صرخة ألم.

لقد أمسك بها الآن، إنما ليس كعاشق ولكن كرجل عابس ضيق الصدر يواجه طفلة غبية جاهلة. قبض على يدها بشدة وهو يوسع من فتحة الباب قائلاً: «لقد سمعت أن بعض النساء يحاولن أن يعطين صورة غير حقيقية عن مقدار نحافة اجسادهن ولكن، حتى صبي في السادسة يعرف أنه لايستطيع أن ينفذ من خلال هذه الفتحة.»

ولسعها انتقاده هذا، فاندفعت تقول كاذبة: «إن ابنة عمي لا بد تتساءل عن سبب غيابي الطويل هذا. عليّ أن اسرع إليها.»

فقال: «صحيح؟ وهذه الثواني القليلة التي وفرتها من فتح الباب بشكل أوسع قليلاً، فلا يعتصر جسمك، كانت ستجعل فرقاً مهما في الأمر. هذا غريب، أليس كذلك؟ أعني أن تشعري حالاً بالحاجة إلى السرعة فقط عندما تركت روبرت؟»

ولم تجد ما تقوله، وها قد اصبح الباب الآن مفتوحاً إلى درجة تسمح لها بالمرور. وكل ما عليها أن تفعله هو أن تخلص يدها من قبضته التي كانت الآن قد تراخت فعلاً، وبعد ذلك تدعي لنفسها بأن سرعتها هذه وعدم خفة حركتها، لم تستجب للإغراء في أن تلتفت لترى إن كان غراي مازال واقفاً ينظر إليها.

ولكن، عندما وصلت بالسيارة إلى مقدمة المنزل، استسلمت إلى الإغراء الذي دفعها إلى الالتفات نحو الباب الأمامي، قبل أن تغادر المنزل في النهاية.

وعندما وصلت إلى منزل ابنة عمها، أرادت سالي، بطبيعة الحال أن تعرف كل ما حدث.

وعندما أخبرتها سارة عن دخوله المفاجيء إلى غرفة المكتب بينما كانت تفتش في درج مكتبه، قالت لها بعطف: «يا للمسكينة، لا بد أن ارتباكك كان هائلاً. ولكن، مع هذا، لا بد أنه شعر نحوك بعرفان الجميل وهو يراك تدخلين منزله وتعتنين بولده.»

فاجابت سارة بلهجة جافة: «ليس الأمر كما تظنين.»

وبعد العشاء، قال روس وهم يتناولون القهوة: «يا للرجل المسكين. إنني لا أحسده على وضعه هذا، إذ ليس من السهل عليه العناية بإبنه وإيجاد من يتولى مسؤوليته.»

وقذفته سالي بالوسادة وهي تقول متهمة: «أنتم الرجال... كلكم سواء. أي نوع من الرجال هذا الذي يترك صبياً في السادسة في رعاية امرأة مثل السيدة جاكوبس.»

فأجابها بجفاء: «هو النوع الذي لا يجد بديلاً لها.»

فابتدأت سالي تقول: «حسناً... إذا أنت فكرت يوماً في أن تتصرف بهذا الشكل بالنسبة لأولادنا...» ولكنه قاطعها وهو ينهض ليعيد إليها الوسادة وهو يبتسم لها مستفزاً: «حسناً، إنني لست في حاجة إلى ذلك ما دمت أنت تعتنين بهم.»

وحاولت سارة أن لا تشعر بالغيرة لهذه الصلة المتينة بين ابنة عمها وزوجها. فقد كانت لا يساورها الشك في أن زواجها هذا يمثل المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة، وهي متأكدة من أنهما سيشتركان تماماً في تحمل مسؤولية العناية بأولادهما، عندما يبدأ هؤلاء في التوافد.

وقال لها روس الآن بهدوء: «لا تتقاسي في الحكم على غراي. فإن الأمر لم يكن سهلاً بالنسبة إليه. فقد اتينا على ذكره في العمل هذا النهار وأخبرتهم أنا عن تعارفك بابنه، فقال واحد من الرجال ممن كانوا موجودين عندما تزوج غراي، قال إن زوجته كانت امرأة بالغة السوء. وتقول الشائعات انها أوقعت غراي في شرك الزواج بالسماح لنفسها بأن تحمل منه. ولكنها عندما أدركت أنه، رغم ثروته، ليس من ذلك النوع الذي يفضل تلك الحياة الصاخبة المحمومة التي تريدها هي، تركته، رافضة أن تسمح له بأي حق في رؤية ابنه، ويظهر أنها أخبرته بأنها، إذا هو لجأ

إلى المحاكم، فإنها ستدعي أمام المحكمة بأن الطفل ليس إبنه... ولكنها قبلت المال الذي كان يدفعه لها نفقة لإبنه بكل سرور. كل هذا قاله ذلك الرجل مضيفاً إلى أنه صرع لجمالها حين أحضرها غراي إلى هنا لأول مرة بعد الزواج. هذا الجمال الذي لم يكن ينسجم مع شخصيتها الخالية من أية جاذبية.»

قاطعت سالي زوجها قائلة: «حسناً. ربما كان هذا الذي حدث فعلاً. ولكن، مادام كان بهذا الحرص على رؤية ابنه في ذلك الحين، فلماذا يشعر الآن بالضيق والبعد عنه؟»

هز روس كتفيه قائلاً: «من يعلم؟ ربما يخاف من أن تقوى الصلة بينه وبين إبنه. أو ربما أن الطفل يرفضه. وعلى كل حال، فإن الأم، كما سمعت، لم تكن من النوع الذي يفقل فرصة تثار بها من غراي. من يعرف ماذا عساها أن تكون قد أخبرت الصبي مما توغر به صدره على أبيه؟ إن ذلك ليس سهلاً على غراي.»

قالت سالي: «حسناً، نتمنى أن يجد غراي شخصاً مناسباً يسلمه مسؤولية إبنه في أسرع وقت، فقد سبق لروبرت أن هرب من المنزل. وصبي بهذا السن هو ضعيف لدرجة فظيعة. إن الرجفة تتملكني كلما فكرت في ما كان يمكن أن يحدث له لو لم تعثر سارة عليه.»

قالت سارة تصحح لها كلامها: «ليس أنا من عثر عليه، بل هو الذي عثر عليّ.» واستدارت إلى سالي عابسة وهي تقول: «اتظنين أنه قد يفعل ذلك؟ قد يهرب مرة أخرى؟»

بعد ظهر هذا اليوم فقط، حاولت أن تشرح لروبرت

مخاطر ما أقدم عليه. ويظهر أن جدته حذرته من الحديث إلى الغرباء خصوصاً الذين عندهم سيارة، ولكنها أهملت ذكر السبب، وكانت هي محتارة بين أن تؤكد للصبي كلام جدته بأن الغرباء خطرين، وبين أن تتدخل في تنشئته وهي التي لا رابطة تربطها به.

سمعت سالي تسألها: «هل ندعوه، إذن، أم لا؟» وانتهت إلى أن ابنة عمها كانت تخطط لإقامة حفلة عشاء، مقترحة أن تدعو إليها غراي فيليبس.

وأجابتها: «لا تسأليني. أعني...»

فقال روس لزوجته: «إنك تحرجينها.» وزاد قوله هذا من الحرج الذي كانت تشعر به.

فقالت لها سالي على الفور: «أوه يا سارة. لا أعني انني أحاول أن اكون وسيطة، بينكما. وإنما هذا لأننا لم نقم حفلة عشاء منذ انتقلنا إلى هنا. لقد ابتدأت أشعر بالضيق والعزلة، مع انني أعلم أن حفلات العشاء لا تبدأ إلا بعد دخول الأولاد إلى المدارس. ولكن، كما أقول دائماً، بعض القوانين وضعت لكي تخترق.»

قال روس يغيظها: «لماذا لا تعترفين بأن غراي يثير فضولك وأن هذه هي الطريقة الوحيدة لإشباع فضولك هذا؟»

جاء دور سالي الآن ليحمر وجهها. وقالت: «حسناً، إنني أشعر بالفضول لرؤيته، وسارة لا تروي الغليل، فهي لا تفتأ تردد (إنه رجل... رجل بكل معنى الكلمة) إنك تعرف ماذا أقصد. ولكنك أنت يا سارة... حسناً، إنك لم توضحي ما تعنين بكلامك، إنه رجل بكل معنى الكلمة... إنك تتحدثين عنه فقط بصفته أب.»

أجابت سارة كاذبة: «في الحقيقة، أنا لم أتأمل كثيراً في شخصيته وصفاته. كل ما كان يعنيني هو علاقته بإبنه روبرت.»

فسألتها سالي بخجل: «إنك إذن... لا تمانعين إذا أنا دعوته إلى العشاء؟»

ماذا كان في إمكانها أن تقول؟

أجابت: «كلا، مادام ليس عليّ أن أجلس إلى جانبه. ليس عندي مانع أبداً.» وكانت تتظاهر بعدم الاهتمام وهي تقول ذلك.

ولكنها نسيت إلى أي حد كانت سالي تعرفها، وتعرف عاداتها الصغيرة التي تكشف ما يدور في نفسها. ومع ذلك، عندما اختلت المرأتان بنفسهما بعد ذلك، قالت سالي لها بهدوء: «اسمعي، إذا كانت دعوتي لغراي تزعجك، فأنا لن أدعوه.»

ردت عليها سارة: «تزعجني؟ إنها طبعاً لا تزعجني... ولماذا تظنين ذلك؟» وسكتت متجاهلة النظرة التي رمقتها بها إبنة عمها.

الفصل الرابع

مضى يومان لم تسمع فيهما سارة أو ترى شيئاً سواء من روبرت أم من أبيه، وحدثت نفسها بأنها مسرورة لذلك إذ يظهر أن غراي فيليبس قد وجد من يمكنها تحمل مسؤولية إبنه، وبهذا يكون الصبي الصغير قد استقر في بيئته الجديدة.

وكانت سالي التي عادت مكرهة إلى عملها، ما تزال تضع خطة حفلة العشاء التي ستقيمها، والتي تحولت من عشاء لستة أشخاص، إلى حفلة كبيرة تضم عشرين شخصاً.

كانت وسارة تشربان القهوة، ذات صباح، عندما قالت تحدث نفسها اكثر مما كانت تحدث سارة: «ربما من الأفضل تحويلها إلى حفلة مقصف. نعم، حفلة غداء يوم أحد، تحوي مقصفاً، ما رأيك؟»

فأجابتها هذه بصراحة: «رأيي أن هذا يكلف مجهوداً شاقاً.»

فقالت سالي: «ربما... ولكن المقصف يكلف مجهوداً أقل بكثير من حفلة عشاء مكتملة. وهو أيضاً يناسب مهارتي المتواضعة في الطبخ.» وابتسمت حين قالت هذا، ثم تابعت: «اتذكرين حفلة العشاء التي أقمتها عندما كنت أخرج مع جون هوارث؟»

فسألتها سارة: «أليس هو ذلك الذي كان رئيس الطهاة الناشىء؟»

وقطبت جبينها وهي تحاول أن تتذكره من بين اصدقاء سالي العديدين.

أجابت سالي: «نعم، هو نفسه، إنني أذكر أنه كان عليّ أن اصنع نوعاً من الحلوى، ولكنني اخطأت في صنعه مما جعلني أقدم بدلاً منه الآيس كريم مع فطيرة التفاح. هل تذكرين؟»

أجابت سارة ساخرة: «نعم أذكر، ما دمت أنا التي كان عليها أن تخرج لتبتاع هذا.»

فقالت سالي: «بعد هذا لم أر جون قط، لا أدري لماذا.» وانفجرت الاثنتان بالضحك.

ارتشفت سالي قهوتها وهي تقول: «آه، حسناً، عليّ أن أعود إلى العمل الآن، ما الذي ستقومين به أنت؟»

أجابت سارة: «سوف أخرج لأتمشى.»

قطبت سالي جبينها قائلة: «لا تدعي مسألة عملك المدرسي تضايقك. إنني اعرفك يا سارة، فأنت نبتة بالغة الرقة، سرعان ما تكبتين في نفسك كل شيء عندما تشعرين بأن ثمة انتقاداً موجهاً إليك. اتمنى لو أستطيع مساعدتك خلال أزمتك العسيرة هذه.»

قالت سارة: «ولكنك تساعدينني. ثم أن هذا شيء عليّ بنفسي أن اضع له حداً. من يعلم؟ ربما كان الحق معهم، بانني لست مناسبة للتعليم.»

قالت سالي: «بل أنك تعشقين التعليم، هذا إلى...»

فقاطعتها سارة: «ما الذي يمكنني أن أقوم به سوى هذا؟ لا أدري، لا بد أن هنالك شيئاً آخر. ذلك لأن المعلمين، كما تقول الصحف، يتركون ميدان التعليم بالعشرات. ولا بد انهم يذهبون إلى مكان ما.»

قالت سالي: «حسناً. إنني متأكدة من أنك لن تجدي صعوبة أبداً في العثور على عمل آخر تبعاً لمؤهلاتك. مع أن هذا يعني أنك ستبدأين مرة أخرى، وربما من أول السلم في أية مهنة أخرى.»

قالت سارة بتأثر: «يكفيك قلقاً بشأني.» وابتسمت لابنة عمها، ولكنها، في أعماقها، كانت بعيدة عن الشعور بالرغبة في الابتسام وهي تتصور المشكلات التي كانت تواجهها في الماضي.

هل كانت حقاً ترغب في العودة إلى التعليم؟ إلى مدرستها القديمة؟ في الوقت الذي تعلم فيه أن كل حركة منها ستكون موضعاً للرقابة والانتقاد؟ صحيح أنها تعشق التعليم... وكذلك تلاميذها... ولكن، أليس صحيحاً أيضاً أنها كانت متعلقة بتلاميذها اكثر من اللازم مما جعلها تتورط معهم عاطفياً؟

كان هذا شرخاً في شخصيتها، وليس شيئاً يمكن استئصاله نهائياً مهما حاولت، وبعد، فلو أرادت أن تستمر في مهنتها، فعليها أن تجد طريقة تمنع نفسها من المبالغة الزائدة بالعناية والإهتمام.

وبقيت مدة طويلة تتمشى، محاولة أن تحلل مشاعر الذنب وعدم الكفاءة التي تملكتها منذ تلك المقابلة المشؤومة مع رؤسائها، ولم تستطع أن تطمئن نفسها بأنها ليست فاشلة رغم المرات العديدة التي أخذت تحاول فيها إقناع نفسها بذلك، ورغم تأكيد اصدقائها واسرتها لها ومحاولاتهم التخفيف من ذلك اليأس البالغ الذي تملكها.

وبعد؟ ما العمل الذي ستقوم به إذا هي تركت التعليم؟ هل تعود فتتعلم مهنة أخرى؟ وأية مهنة يا ترى؟

وكان الوقت عصراً حين عادت إلى الكوخ عبر الحقول من الخلف، لتدخل من بوابة السور الممتد حول الحديقة، بدلاً من السير نحو الباب الأمامي. وما أن وصلت إلى ممر الحديقة، حتى فتحت سالي الباب الخلفي وهي تشير إليها، وعندما هتفت سارة تسألها عما هناك، وضعت إصبعها على شفتيها تشير إليها بالصمت، وهي تهمس: «لقد جاءك زائر، إنه غراي فيليبس، وقد اجلسته في غرفة الجلوس، إنه هنا منذ مدة طويلة. كنت أظنك ستعودين مبكرة.»

غراي فيليبس؟ ولماذا يريد أن يراها؟ وابتدأ قلبها يخفق بعنف. وشعرت بمزيج من اللهفة والكراهية لرؤيته. كان شعرها مشعثاً اثر سيرها الطويل هذا. وفكرت في أنها ستبدو جداً مختلفة عن النسوة اللاتي اعتاد هو أن... النسوة اللاتي اعتاد أن يعجب بهن ويرغب فيهن. إنها تذكر جيداً الطريقة التي تحدث فيها عن زوجته السابقة... ومشاعره التي احست بها من خلال نعته الساخر لها.

قالت سارة عابسة: «مادام قد انتظر كل ذلك، فإن في إمكانه أن ينتظر عدة دقائق أغسل فيها يديّ وأسرّح شعري.» ولم تشأ أن تخبر حتى ابنة عمها المقربة منها، عما تشعر به من كراهية لرؤيته.

قالت سالي تحذرها: «لقد أصبح نافد الصبر. سأذهب إليه وأخبره بقدومك.»

وبالرغم من نيتها في عدم الاسراع، فإن سارة، حالما أصبحت في غرفتها، وجدت يديها ترتجفان وهي تغسلهما، ثم ازداد ارتجافها وهي تسرّح شعرها. بينما اخذت تتأمل وجهها الخالي من الزينة، بقلق، متمنية لو أنها غير ما هي

عليه من مظهر عادي. حتى أنها اقنعت نفسها بأن أحمر الشفاه التي أخذت تضعه بيد غير ثابتة، ما هو الا لاكتساب شيء من الثقة بالنفس ليس إلا، ولكنها عندما وجدت نفسها تخلع عنها الجينز والقميص المقفول، لترتدي، بدلاً منهما، تنورة وقميصاً نظيفاً، أدركت عند ذلك، أن ليس عليها أن تخدع نفسها بعد الآن.

وحدقت في الأرض وهي ترتجف قليلاً. ماذا جرى لها؟ هل ظنت حقاً أنها ستؤثر على غراي فيليبس كامرأة، بتغيير ملابسها فقط؟ أحقاً أنها لا تملك الذكاء لإدراك أن أول ما يجذب نظر الرجل هي الملابس وخاصة إذا كانت جميلة وأنيقة؟ ولكن الجاذبية التي شعرت بها نحوه لم يكن لها صلة بالملابس، بل كانت تتعلق بشيء اكثر غموضاً ودقة.

إنها ببساطة، ليست من نوع النساء اللاتي يجذبن غراي فيليبس، ولو كان عندها عقل لشكرت حظها على ذلك. لقد قال روس، يبدو أن فشل زواجه جعله يشعر بالمرارة والكراهية للنساء.

وهي تتصور الآن أنه إذا حدث وفكرت في ان يقيم علاقة مع امرأة ما، فإن انصراف مشاعره إلى زوجته السابقة يمنعه من ذلك.

وهزت رأسها وهي تكمل ارتداء ملابسها النظيفة، عليها أن تتوقف عن كل هذا، وبدلاً من أن تترك افكارها تتعثر في هذه المسالك المتشعبة، عليها أن تركز عقلها على محاولة معرفة السبب في قدوم غراي فيليبس لرؤيتها. هل ذلك لأجل روبرت؟ هل جرى شيء لذلك الصغير؟ هل يا ترى، هرب مرة أخرى؟

وارتجفت أصابعها وهي تقفل أزرار تنورتها متمنية أن لا يكون هذا هو السبب. ولكن لا، فلو كان روبرت مفقوداً، لما انتظرها غراي كل هذه المدة الطويلة.

ونزلت من غرفتها قاصدة غرفة الجلوس. وما أن اقتربت من الباب، حتى فتح وخرجت منه سالي وهي تقول لها عابسة: «إذهبي أنت بدلاً مني، ربما كان جذاباً، ولكنه ليس بالذي يحسن الحديث، أليس كذلك؟»

وعندما دخلت سارة غرفة الجلوس، كان هو واقفاً ينظر من النافذة إلى الحديقة وظهره إليها.

كانت قد دخلت بهدوء تام دون أن تحدث خطواتها صوتاً على السجادة السميكة. ولكنه، مع هذا، إما أنه شعر بقدومها، أو أنه رأى انعكاس صورتها على زجاج النافذة، لأنه استدار على الفور، واستبد بها الضيق وهي تسمع نفسها تعتذر لاهثة: «إنني آسفة لانتظارك الطويل هذا، فقد كنت أتمشى في الحقول.»

ما الذي كانت تفعله؟ وما الذي جعلها تشعر بالحاجة إلى استرضائه بهذا الشكل؟

رفع حاجبيه وهو يحييها وقد بدت في عينيه نظرة مفكرة وكأنما قد استغرب سلوكها هذا. وأجاب باقتضاب: «كان يجب أن اتصل هاتفياً قبل حضوري. ولكن، بما أنني أصبحت هنا، فقد كان من الحماقة أن لا انتظر... مع أن عندي موعداً في الساعة الخامسة. لهذا سأدخل في الموضوع رأساً، إذا كنت تسمحين.»

ولما أومأت بالإيجاب، قال ببرود وهو يتأملها: «هل صحيح ما سمعت من أنك هنا لتفكري في مهنتك المستقبلية

إذ أنك، رغم كونك معلمة متخرجة، قد لا تعودين إلى مزاولة مهنتك تلك؟»

كان ينتقي كلماته بحذر كما لاحظت سارة، وذلك كي لا يثيرها. وهذا ما أدهشها بالذات لدرجة جعلتها تركز ناظريها عليه.

كان يراقبها عن كثب، فلم تكن بينهما سوى مسافة قصيرة.

ابتدأت خفقات قلبها تدق بعنف وهي ترى مخاوفها تتحقق مرة واحدة. لقد أدركت جيداً ما الذي كان قد سمعه أيضاً، وتصورت مبلغ السخرية والتهكم اللذين لا بد شعر بهما حين سماعه بذلك.

وكان ذلك ما جعلها ترفع رأسها وتقول متحدية بنفس البرود، الذي خاطبها به: «إذا كنت تعني ما قاله لي رؤسائي من أن عودتي إلى التعليم ليس بالفكرة الصائبة، بالنظر إلى اهتمامي الزائد عن الحد بتلاميذي فهذا صحيح.»

جعلت النظرة التي ألقاها عليها، وجهها يتوهج، مع أن نظرته تلك لم تكن تحمل أي معنى للتهكم أو الغضب، بل كان في نظراته ما كان يمكن أن تصفه، بالنسبة لأي شخص غيره، بما يشبه الفكاهة والاستحسان... ولكن التفكير في أن هذا الرجل يمكن أن يكون عنده روح الفكاهة، والاستحسان لما تقوله هي، فهذا مستحيل... إنها تخيلات منها لا اكثر.

سألها: «ألم تجدي وظيفة لنفسك بعد؟»

فهزت كتفيها قائلة: «كلا... لم أجد بعد.»

بدا في لهجتها عدم رغبتها في مواصلة هذا الحديث، وأنها لا تعتبر مسألة مستقبلها تخصه بشيء.

قال: «هذا حسن.»

هذا حسن؟ ما الذي يقصده بقوله هذا؟ ونظرت إليه بعينين متسعتين وهي تسأله بمرارة: «ماذا يعني هذا؟ هل ان عدم فرض نفسي أو مشاعري المتطرفة على الآخرين، هو شيء حسن في اعتبارك؟»

تساءلت عن السبب الذي جعلها تقول هذا، وهي تحاول، غاضبة، أن تكبح من زمام انفعالها.

أجاب متجاهلاً انفجارها هذا: «إنه يعني أنني مسرور لعدم اتخاذك عملاً آخر، إذ أن في إمكاني الآن أن اسألك إن كنت تقبلين العمل عندي.»

العمل عنده؟ وفتحت فاها ذاهلة لدى سماعها كلماته تلك.

وسمعت نفسها تقول بغباء: «ولكنني لا اعرف شيئاً عن الهندسة.»

ساد سكوت قصير وكأن ما قالته قد جعله على حذر، ثم ما لبث أن قال: «إنك لست بحاجة لهذا، على الأقل ما لم يبدأ روبرت، فجأة، بالاهتمام بالهندسة.»

قالت: «روبرت؟»

أجاب: «ان ما اسألك إياه هو إن كنت تقبلين العمل عندي كمرافقة ومرشدة لروبرت.»

فقالت وقد بدا الذهول في صوتها ووجهها: «أتريدني للعناية بروبرت؟» ذلك أنه بعد ما حدث بينها وبينه كانت تظن أن اقترابها من ولده، هو آخر شيء يتقبله. وتابعت متلعثمة: «ولكنني ظننت... إنك قلت... ظننت أنك تجري مقابلات لمربيات.»

فأجاب: «هذا صحيح. ولكنني، للأسف، لم أجد واحدة مناسبة. أربع منهن على الأقل كن مؤهلات تماماً لذلك، ولكنني عندما أخذت بنصيحتك وقدمتهن إلى روبرت رفضهن جميعاً. ثم اخبرني بعد ذلك، أن من يريدها حقاً أن تعتني به هو أنت.»

كانت سارة ماتزال تحدق فيه. مهما كانت فكرتها عنه أو حكمها عليه، فإنه لم يخطر ببالها قط أنه يسمح لإبنه، مهما كان الأمر، بأن يغير من حكمه الخاص عليها.

قالت: «ولكن... إنني لا أعجبك.»

عضت شفتها السفلى بقوة وهي تتساءل عما حدث لعقلها، وأي غباء جعلها تقول شيئاً لا ينبغي أبداً أن يقال سواء كان صحيحاً أم لا.

وبدا أنه يفكر في نفس الشيء، هو أيضاً، إذ ان وجهه أظلم وأطبق شفتيه بشدة وهو يقول: «ليس عليك أن تعجبيني، كما أنه ليس عليّ أن اعجبك. إن اعتباري الأول هنا يا سارة هي مصلحة روبرت. أليس هذا ما سبق وأردت مني أن أفعل؟»

كان في اتهامه الرقيق هذا لها، من العتاب أكثر مما فيه من اعتراف بمعاملته الخاطئة لإبنه.

قالت: «ولكن... إنني لم أتعلم هذا النوع من العمل. إنني معلمة.»

فأجاب: «معلمة هي ولكن ليست كسواها، وكما سمعت، فإنّ لها رقة قلب بحيث كانت تمضي من الوقت في حل مشكلات تلاميذها، أكثر مما تمضيه في تعليمهم. ذلك ان غريزة أمومة قوية هي ليست بالشيء الذي يمكن اكتسابه بالتعليم، ياسارة.»

غريزة أمومة قوية. ولسبب ما، شعرت بغصة في حلقها.

وعادت تقول: «ولكنني لست متأكدة من قدرتي على القيام بالتزام كهذا. وليس من الصواب أن يكون روبرت قد اعتاد الاعتماد عليّ عندما...»

فقاطعها قائلاً: «إنني لا أطلب منك تقديم التزام بشأنه مدى الحياة. فهذا مستحيل وليس صواباً، سواء بالنسبة إليه أم إليك. ولكن ليس في وسعي إنكار حقيقة أنه، حالياً، مازال صبياً صغيراً هشاً. ويبدو أن ثمة ما جعله يشعر برباط يشده إليك، إنه إبني يا سارة، ومن الطبيعي انني أريد سعادته... آملاً ان ينسى مع الوقت أن...»

فقاطعته: «ينسى أنه فقد والدته وجدته؟ إن هذا مستحيل كما أنه ليس صواباً. إنه بحاجة إلى أن يتذكرهما ويتحدث عنهما. وماذا سيكون شعوره، وهو يتحدث إليك عنهما، إذا أنت أظهرت أمامه بوضوح، رأيك في أمه؟» وسكتت فجأة وقد انتبهت إلى أنها تكلمت اكثر مما ينبغي.

أجابها بعدم لباقة: «لقد ابتدأت أفهم لماذا أنت غير مناسبة لمهنة التعليم؟»

وأشاحت بوجهها لكي لا يرى تدفق الدمع من عينيها. والذي كان نتيجة جرح كبريائها اكثر من أي شيء آخر. وسمعت نفسها تقول له بشبه ثورة: «وكذلك أنا غير مناسبة لأكون بديلة لأم. فإذا كان هذا ما تبغيه لروبرت فالأفضل أن تحاول العثور على واحدة بالطريقة العادية المتعارف عليها.»

قال وقد بدت في عينيه نظرة خطرة حادة كشظايا الزجاج، كما كست المرارة ملامحه: «أتعنين أن عليّ أن

أتزوج ثانية؟ فلندع هذا الحديث ولنعد إلى الواقع. إنني لم أطلب منك لحظة، أن تكوني بديل أم لروبرت. إن كل ما أريد أن اعلم ما إذا كنت تقبلين أن تكوني مربية لروبرت. وإذا قبلت بهذا، فإنني انذرك أنني أريدك ان تتعهدي خطياً بالبقاء في هذا العمل عندي لسنة كاملة على الأقل.»

فكرت سارة في الرفض. أن تخبره بأنها لا تتصور أن تعمل عنده بينما يبدو بجلاء أنهما لا يمكن أن يتفقا. وليس هذا فقط... فهناك شعورها الخطر نحوه هو. كرجل...

قال: «إذا قبلت هذا العمل، أتعهد بأن اطلق يدك مانحاً إياك ملء الحرية في معاملتك لروبرت.»

قالت: «ذلك لكي تتجاهله أنت تماماً.»

وكان في النظرة التي وجهها إليها ما حقق شكوكها. فبقدر ما كانت تحب روبرت وتريد أن تساعده، كانت لا تريد أن تعمل بسبب الأب.

قال غراي فيليبس، متجاهلاً إياها وهي تهم بأن تعطيه الجواب النهائي: «لا تعطيني الجواب الآن. سأزورك غداً وحينذاك تعلمينني بقرارك النهائي، إذ لا شك أنك ستتحدثين عن عرضي هذا مع ابنة عمك وزوجها.»

ولأمر ما، شعرت بالغيظ من لهجته تلك، فقالت بحدة: «ولماذا أفعل ذلك؟ إنني راشدة وقادرة تماماً على أن أقرر ما الذي يصلح لحياتي.»

أجاب: «إنني متأكد من ذلك. ولكن أكثرنا يحب أن يستطلع وجهات نظر الآخرين إذا كنا على وشك القيام بتغيير في نمط حياتنا.»

وبينما أخذت تستوعب قوله هذا، خامرها الشك في أنه ما سبق واستمع قط إلى وجهات نظر الآخرين، في حياته كلها. ولكن، إذ بصوت داخلي ينكرها بأنه فعلاً سبق واستمع إلى رأي روبرت بشأنها.

كان قد مر بها الآن متجهاً نحو الباب، ومع أنها كانت تريد أن تخبره بأنها قد قررت عدم قبول عرضه هذه الوظيفة عليها، مع هذا، فقد تركته يفتح الباب مبتعداً جاعلة إياه، يفترض بأنها ستقبل بعرضه هذا في الوقت الذي تعلم هي فيه، ولا بد أن يعلم هو أيضاً، أن هذا العرض، ببساطة لا يمكن أن يسير بنجاح.

كانت لا تزال واقفة، تنظر إليه وهو يبتعد بسيارته، عندما دخلت سالي عليها تسألها بلهفة: «حسناً؟»

فاستدارت إليها وهي لا تريد أن تحيد نظراتها عن رؤية سيارته التي كانت تختفي تدريجياً. ثم قالت: «أوه... لم يكن الأمر ذا اهمية، في الحقيقة، إنه يريدني أن اعمل عنده العناية بإبنه روبرت. ولكنه اشترط عليّ أن أتعهد خطياً بأن يكون ذلك لسنة على الأقل.»

وهتفت بها سالي: «ماذا؟ هل عرض عليك عملاً؟ آه، هذا رائع. كنت دوماً خائفة من أن تتركيني، خاصة أن روس يغيب احياناً في عمله بعيداً عن هنا. آه يا سارة، كم أنا مسرورة.»

قاطعتها سارة: «ولكنني لم أقبل بعد... وهو سيعود غداً لأخذ الجواب. ولكنني...»

قاطعتها سالي: «ولكن ماذا... انك ستقبلين هذا العمل بالطبع، أعني، وما أهمية سنة؟ إن هذه ستكون استراحة

رائعة لك تلتقطين فيها انفاسك... وهي تمنحك الفرصة للتفكير في ما تريدين أن تقومي به حقاً.»

فقالت سارة بسرعة: «ولكنني مازلت موظفة.»

كانت تشعر وكأنها تغرف في مستنقع، وكان هذا ما يمثل لها العمل عند غراي فيليبس والخطر الذي يحدق بها من جرائه. ولكن سالي لا تعرف شيئاً عن هذا، بطبيعة الحال، وهي بالتأكيد لن تخبرها عن ذلك، وعما أثاره فيها من مشاعر.

وقالت لها سالي ملاطفة: «هيا، يا حبيبتي، إنك تعلمين قدر ما أعلم، أنك كنت تشعرين بالفزع لقرب ابتداء السنة المدرسية. إنني أعلم كم أنت ممتازة مع الأولاد، عاطفياً، وكم أنت ممتازة بالنسبة...»

قاطعتها سارة ساخرة: «لعواطف الأمومة.»

نظرت إليها سالي عابسة وهي تقول: «إنك قاسية على نفسك. إن كل إنسان يعرف مبلغ أهمية السنوات الأولى للطفل. لقد تحدثت بنفسك عن مبلغ اهتمامك بروبرت، وها قد اتاك الحظ لمساعدته.»

هزّت سارة رأسها قائلة بعناد: «إنني لست متأكدة من صواب هذا الأمر.»

ألقت عليها سالي نظرة ثاقبة، ثم قالت: «حسناً، إن أمامك أربع وعشرين ساعة للتفكير في هذا الأمر والقرار النهائي هو طبعاً، قرارك.»

ولكن هذا لم يجعلها تتوقف عن سرد كل الفوائد التي ستجنيها سارة من قبول عرض غراي فيليبس هذا، وذلك أثناء وبعد العشاء. وبالطبع، كان روس يساندها في ذلك

تماماً، مضيفاً استحسانه واقناعه لها هو أيضاً.

كان في إمكان سارة ان تشعر بالسعادة للحصول على هذه الوظيفة، لولا غراي فيليبس، كما اعترفت سارة لنفسها وهي مستلقية في سريرها تحاول النوم.

لقد كانت تحب روبرت، وكانت تعلم أن في إمكانها أن تساعده.

فهل من الصواب ان تفضل احتياجاتها الخاصة ومشاعرها المتهالكة، على مصلحة طفل؟ إنها بالتأكيد قادرة على نبذ وتجاهل كل شعور منها نحو أبيه. هذا إلى انها كانت مطمئنة تماماً إلى أن غراي فيليبس سيحرص على أن يجعل الاتصال بينهما في أدنى حدوده. كما أن دورها كمربية لروبرت، يعني أنه لن يكون عنده وقت كبير يمضيه في المنزل ما دامت هي هناك لرعاية الطفل. فإذا شاءت أن تقبل هذا العمل، فلا بد أن تشترط إذن عدم إقامتها في المنزل، ولكنها تحضر يومياً. وهذا يعني أنها ستكون بحاجة إلى سيارة صغيرة. حسناً، إن عندها من النقود، في صندوق التوفير في البنك، ما يسمح لها بشراء واحدة. ولكن، ما لأفكارها تتواتر في هذا السبيل ما دامت قد قررت أن لا تقبل هذا العمل؟

قالت سالي، أثناء تناولهم طعام الفطور، وهي تلقي نظرة عابرة على البريد: «ها هنا رسالة لك. وهي تبدو رسمية تماماً.» ثم ناولتها إياها واهتز جسد سارة بعصبية، وهي تعيد قراءة الرسالة اكثر من مرة، مهملة طعام الفطور الذي أمامها.

سألتها سالي: «ماذا جرى يا سارة؟ ماذا يوجد في الرسالة هذه؟»

رفعت سارة عينين كئيبتين لتقول وقد اكفهر وجهها: «إنهم يطردونني من العمل، بعد كل الذي قالوه بأن تلك المقابلة التي أجروها لي لم تكن ذات صفة رسمية، وأنهم سيمنحونني فرصة أخرى لإصلاح طريقتي في العمل.»

قاطعها روس عابساً: «يطردونك؟ ولكن هذا، بالطبع، ليس بمقدورهم.»

هزت سارة كتفيها وهي تقول: «إنهم يقولون هنا إنهم سيخفضون من عدد المعلمين، وبما انني آخر معلمة مرغوب فيها، فهم يطلبون مني ترك العمل.»

اعترضت سالي قائلة: «ولكن هذا ليس طرداً.»

هزت سارة رأسها وهي تسألها بمرارة: «ماذا يسمى هذا، إذن؟»

فحاول الاثنان، سالي وزوجها، أن يسريا عنها. ولكن شعور سارة بالتعاسة والاكتئاب والفشل كان أكبر من أن يؤثر فيه شيء.

وبعد أن خرج روس إلى عمله، قالت لها سالي: «حسناً، إن شيئاً واحداً الآن على الأقل، قد تقرر وهو أن تقبلي ذلك العمل الذي عرضه عليك غراي فيليبس.»

تقبل ذلك العمل؟ وشعرت سارة وكأن ماءً بارداً قد صب عليها. وأرادت أن تحتج، ولكن الكلمات لم تخرج من فمها. لقد منعها شعورها بالهزيمة والاحباط من أن تقول شيئاً. وامتلأت عيناها بالدموع.

إنها فتاة فاشلة... من الذي سيقبل بأن تعمل عنده كمعلمة بعد الآن، وكيف سيبدو على شهادة الخدمة تقرير انها طردت من العمل؟

دارت في رأسها الأفكار اليائسة. ذلك أن آخر شيء كانت ترغب به، هو أن تعمل عند غراي فيليبس. ولكن سالي معها حق، إذ ما هو البديل الآن؟ فهي لا تحب ان تكون عالة على والديها ولا على احسان إبنة عمها، ولكن عليها ان تمضي الشهور في البحث عن وظيفة أخرى. خصوصاً إذا هي رفضت الوظيفة المعروضة عليها حالياً. إذن، فليس عليها الآن، سوى القبول.

الفصل الخامس

بعد الظهر، اطلعت سارة غراي فيليبس على قرارها هذا بالقبول بصوت ضعيف تملؤه المرارة، لم يستطع أن يخفي تماماً شعورها الحقيقي.

ومن الغريب أنه لم يبد عليه العجب من قلة حماسها ذاك، بل قال فقط: «هذا حسن، إنني مسرور لاستقرار هذا الأمر، وبقي علينا الآن أن نبحث في الأمور المادية وأوقات العطل. يوجد غرفة خالية قرب غرفة روبرت لها حمامها الخاص ستكون لك.»

أسكتته سارة حالاً بقولها: «لا يمكنني أن اسكن في المنزل. وهذا خارج عن الموضوع.»

عبس هو لسماعه ذلك، فأسرعت تقول: «إنني أتعهد بالبقاء مع روبرت في حال تأخرك في العمل. ولكن، ليس في إمكاني السكن عندك.»

كانت تعلم أنه ينظر إليها متأملاً، رغم أنها لم تستطع أن تنظر إليه مواجهة. هل تراه سيسألها عن السبب؟ وحبست أنفاسها وهي تتمنى أن لا يوجه إليها هذا السؤال، إذ لم تكن تعرف جواباً مقنعاً تقدمه له كذريعة. إنها فقط تعلم أن ليس في استطاعتها حماية نفسها من العيش، وهذا الرجل، تحت سقف واحد.

ضحكت على نفسها بمرارة، وهي ترى نفسها تتصرف كاحدى شخصيات رواية من العهد الفيكتوري. ما هو

الضرر الذي سينتج عن رقادها تحت سقف منزل غراي فيليبس بالنسبة إليها؟ حسناً، إن الضرر لن يأتي من جانبه هو، ولكن من تفكيرها هي فيه... ولأجل هذا... كان من الضروري أن لا تسمح لنفسها بأن تسقط في شرك احلام اليقظة.

قال: «ولكن، في هذه الحالة، ستكونين في حاجة إلى سيارة.»

أجابت سارة وهي ما زالت مشيحة بنظراتها عنه: «هذا صحيح، ولكنني كنت أنوي شراء سيارة على كل حال.» ساد صمت طويل تمنت اثناءه، أن يقول انه قد غير رأيه وأنه سيسحب عرضه للوظيفة، ولكن ما أذهلها أنه قال بدلاً من ذلك: «حسناً. كنت أفضل لو سكنت عندي، وذلك لأسباب واضحة، ولكن، ما دمت تصرين على ذلك، فليس في إمكاني سوى القبول.»

كادت أن لا تصدق ما سمعت، فاستدارت إليه تواجهه، دون أن تعلم بأنها اعطته الفرصة، بذلك، للنظر مباشرة في عينيها.

كان التعبير القاسي في عينيه ينبىء بأنه لاحظ تماماً نفورها من هذا العمل. وتمنت أن لا يكون من الفطنة بحيث يتمكن من معرفة سبب هذا النفور. ولكن لا يمكنه أن يكون كذلك، فقد أظهر بوضوح تام أنه لا يبحث عن أية علاقات عاطفية أو التزامات مع أي من الجنس الآخر. وطبعاً، سيكون هو الأحرص على حفظ مسافة مناسبة تماماً بينهما.

كلا، إنها ستكون هناك في منتهى الصون والأمان ولكن،

في أي وقت تدرك هي فيه أنه قد تكهن بما تشعر به نحوه... عند ذلك ستترك العمل، سواء كان هناك عقد بعمل سنة كاملة، أم لم يكن.

أخذ يتحدث عن النقود، والأجر الذي عرض ان يدفعه لها كان اكثر من سخي.

قالت سالي لها بعد خروجه: «إنّ من الحماقة أن لا تقبل بذلك.

وتمنت في أعماقها، لو أنها كانت هي أيضاً مقتنعة بهذا العمل.

أراد منها غراي أن تباشر بالعمل على الفور، ولكن، كما قالت لابنة عمها، لا يمكنها ذلك، في الواقع، قبل أن تشتري سيارة.

سارعت سالي تقول بشهامة: «لِمَ لا تستعملين سيارتي، في هذه الفترة؟»

لكن سارة هزت رأسها نفياً وهي تقول: «كلا، لا يمكنني ذلك. إن هذا غير لائق.»

ولكن، إذا كانت تظن أنها يمكن أن تماطل في الذهاب إلى العمل بحجة التفتيش عن سيارة مناسبة، فإنها سرعان ما اكتشفت أنها تخدع نفسها. ذلك أنه، في ذلك اليوم، وبعد انتهائهم من تناول طعام العشاء، رن جرس الهاتف. وذهب روس ليجيب، ليعود بعد عشر دقائق قائلاً: «كان هذا غراي فيليبس. لقد وجد لك سيارة مناسبة، ويبدو أنها صفقة جيدة، لأن صاحبتها امرأة مسنة ونادراً ما تستعملها، ولهذا فإن مسجل المسافات منخفض جداً.»

فتحت سارة فمها لتحتج قائلة لزوج ابنة عمها إن غراي

فيليبس ليس له الحق في استلام الأمور بيده، وإنها قادرة تماماً على شراء سيارتها بنفسها، ولكن قبل أن تقول كل هذا، تابع روس كلامه يمدح ميزات طراز هذه السيارة المستعملة التي وجدها غراي فيليبس لها. وبدا عليه وعلى زوجته الحماس الفائق والمديح لما قام به غراي فيليبس، مما جعل سارة غير قادرة على التعبير عن شعورها الحقيقي.

وعندما خرج الثلاثة إلى القرية القريبة حيث تمكث صاحبة السيارة، بعد ذلك بنصف ساعة، كانت سارة ما تزال تغلي بنيران الغضب والاستياء المكبوت.

حدثت نفسها، وهي تجلس في المقعد الخلفي من السيارة، أن ليس ثمة من يمكن أن يستدرجها إلى شراء سيارة لم تخترها بنفسها. فهي تعارض أن يعاملها أحد كطفلة غير قادرة على أن تقرر ما تريد، وغير قادرة على تسيير حياتها.

بقيت على موقفها العدائي هذا حتى اللحظة التي رأت فيها السيارة، رغم الحماس الذي أظهراه روس وسالي، وحتى بعد أن تعرفت إلى صاحبة السيارة، وهي أرملة فاتنة في أواخر العقد الخامس من عمرها، والتي أجابت ببراءة، على سؤال لسارة، بأنها تعمل في مكتب غراي فيليبس. وأنها كانت تتحدث بالصدفة، عن رغبتها في بيع سيارتها، عندما اعلن هو أنه يعرف شخصاً ربما تعجبه هذه السيارة فيشتريها.

نعم، لقد كانت لورا غريغ صادقة دون شك. وكان من الممكن، في ظروف مختلفة، لسارة بأن تشعر بالتأثر

للطريقة التي كانت المرأة تتحدث فيها عن سيارتها بلهجة مليئة بالمشاعر والأحاسيس وليس بالملل والضجر.

على كل حال، بسبب الطريقة التي شعرت فيها بأن غراي فيليبس يحاول أن يسيطر بها عليها، ليسلبها الحق في تقرير شؤون حياتها بنفسها، بسبب هذا، صممت بعناد، على رفض السيارة. كان هذا قرارها، إلى أن رأت السيارة أخيراً.

لم يكن لديها فكرة عما توقعته في الواقع... وبعد أن قابلت السيدة غريغ، تكونت لديها فكرة مبهمة بأن سيارتها لا بد ان تكون صغيرة قوية وأنها، بدون شك، معتنى بها جيداً ومستعملة بحذر، وأيضاً داكنة معتمة بعض الشيء، وربما لونها رصاصي أو بيج.

ومع أنها لم تساورها، يوماً ما، رغبة في اقتناء سيارة مهما كان لونها أو سرعتها، فإن مجرد التفكير في أن غراي فيليبس يختار لأجلها سيارة لامرأة عجوز ويجدها مناسبة لها هي، هذا التفكير حرك في اعماقها شعور تمرد لم تتذكر أنها شعرت بمثله منذ سنوات.

ولكن أن تصطدم نظراتها بمرأى سيارة حمراء لامعة متحركة السقف ذات مقاعد جلدية بنية اللون، بينما غطاؤها مرفوع إلى الخلف في دفء شمس عصر ذلك النهار... وكان مرأى السيارة تلك، صدمة جعلت سارة تطرف بعينيها عدة مرات قبل أن تصدق ما ترى.

وعندما أخذت تنقل ناظريها بين لورا غريغ والسيارة، رأت احمراراً خفيفاً يعلو وجنتي المرأة. وقالت توضح الأمر وقد تسارعت انفاسها قليلاً: «لقد ساعدني حفيدي في

اختيارها. وترددت في البداية ولكن، كما تعرفين...» ومررت بيدها على جانب السيارة بحب وهي تتكلم، ثم أضافت بحسرة: «إن ابنتي حامل للمرة الثالثة، بتوأمين كما أخبرها الطبيب، وطبعاً، ليس ثمة طريقة لوضع أربعة أطفال في المقعد الخلفي للسيارة هنرييتا هذه، وهكذا...» واطلقت آهة خفيفة.

سمعت سارة نفسها تقول: «ما أروعها.» وللحال، أدركت أنها خسرت المعركة.

وبعد نصف ساعة، عندما انتهت الإجراءات الشكلية، كانت سارة تستمع، وهي تشعر بمثل الدوار، إلى لورا غريغ وهي تضيف قائلة: «إنني أدرك سخافة ما أقوله، لكنني مسرورة جداً لأن هنرييتا ستذهب إلى منزل محترم.» واحمر وجهها مرة اخرى ثم تابعت قائلة: «إن صهري يظن أنني مجنونة... ولكنها السيارة الأولى التي امتلكتها. عندما كان زوجي حياً...» وتنهدت وهي تتابع: «عندما وصفك غراي لي كفتاة مثالية مناسبة لشراء هنرييتا مني، كنت ما زلت مترددة، وفي الحقيقة، كنت مصممة على أن اعتذر قائلة إنني غيرت رأيي في بيعها، وذلك إلى أن قابلتك.»

كانت سارة تستمع إليها محاولة أن تمنع نفسها من التساؤل عما إذا كان غراي فيليبس يخفي تحت مظهره الفظ، رقة وانسانية اكثر كثيراً مما كانت تتوقع.

وفي ما بعد، وهم عائدون إلى المنزل، قالت سالي: «لا بد أن غراي فيليبس يفكر فيك كثيراً، يا سارة، اعني بتجشمه كل ذلك العناء لأجلك.»

أجابت سارة بجفاء: «لا أظنه يأخذ عني فكرة عالية...

ولكنه في حيرة من أمره لا يدري ماذا يفعل بإبنه.»

همهمت سالي دون أن يبدو عليها الاقتناع. ولكن سارة لم تسمح لنفسها بأن تخدع بكلام سالي، وبعد، فإن لديها الكثير من الأدلة عن رأي غراي فيليبس السيىء فيها. وهي تعلم جيداً أنه لولا تعلق روبرت بها، لما فكر غراي لحظة في استخدامها للعمل عنده.

وإلى ان تصبح سارة المالكة الحقيقية للسيارة، بعد دفع الضرائب وإجراء معاملة التأمين، وهذا يأخذ حوالى أربع وعشرين ساعة على الأقل، أصرت عليها سالي في أن تستعير سيارتها هي كي لا تتأخر عن مباشرة عملها. وقبلت سارة عرضها الكريم هذا دون حماس، وهي تعلم أن ذلك لأجل روبرت وحده وليس لأجل أبيه.

كان سلوكها المهذب الذي استقر في أعماقها منذ الحداثة، قد دفعها إلى أن تتصل هاتفياً بغراي فيليبس حال وصولهم إلى الكوخ.

وعندما سمعت صوته، وكانت على وشك إعادة السماعة إلى مكانها، شعرت بمزيج من الذعر والسرور دفعها إلى أن تقول بصوت ملتو غير طبيعي: «أرجو أن لا أكون سببت لك إزعاجاً، ولكنني فقط أردت أن اشكرك لما قمت به لأجلي بشأن السيارة.»

وعلى العكس من صوتها، كان صوته ثابتاً ليس فيه أدنى أثر للتردد وهو يقول: «لقد ذهبت إذن لرؤيتها. هذا حسن. هل أعجبتك؟»

وأدهشها سؤاله هذا، خصوصاً بعد طريقته المتسلطة تلك وهو يأمرها بأن تذهب لرؤية السيارة قبل كل شيء.

ونسيت حذرها وهي تقول بصدق وبراءة: «نعم... نعم... لقد ذهبت، مع أنها لم تكن كما توقعتها تماماً.»

وسكتت فجأة وهي تشعر بالغضب من نفسها لاندفاعها بكل ذلك الحماس في كلامها. ولكن، لم يظهر على غراي أنه لاحظ شيئاً، لأنه تابع قوله بلهجة عفوية: «حسناً، إنني مسرور لانتهاء هذا الأمر. إذن، ستكونين هنا صباح الغد؟»

تنفست سارة بعمق وهي تجيب: «نعم، في أي وقت تريدني فيه أن أحضر؟»

أجاب: «حسناً، إنني، عموماً، أخرج حوالي الساعة الثامنة. فإذا كان في إمكانك أن تكوني هنا كي... إنني أعلم أن هذا الوقت هو مبكر، ولكنني أحب أن أكون في المصنع في الثامنة والنصف، لقد اعتادت السيدة جاكوبس أن تحضر الفطور لروبرت بنفسها و...»

قاطعته: «طبعاً. وسأتأكد من تناوله لفطور جيد.» كانت تريد أن تطمئنه.

ولكنه اسكتها قائلاً ببرودة أدهشتها: «نعم، إنني متأكد من هذا. على كل حال، ما أريد أن أقوله هو أنه بالنظر إلى انك ستبدأين العمل مبكراً، يكون من الأفضل لو تناولت طعام الفطور مع روبرت، هذا إلا إذا كان عندك أي اعتراض متأصل على الأكل في منزلي كما اعترضت على المبيت فيه.»

ولم تعرف سارة ماذا تقول. فقد شعرت بسخرية واضحة في صوته، وانتابها شعور بالمذلة. لقد جعلها تبدو كبطلة رواية عانس من العهد الفيكتوري التي رفضت أن تجلس على كرسي كان قد سبق وجلس عليها رجل.

وعندما استطاعت أن تتمالك نفسها، وتجد صوتها الطبيعي، قالت: «شكراً. إنني أوافقك على أن تناولي الفطور مع روبرت يجعل الأمور اكثر سهولة من جميع الجهات، وفي هذه الحال أظن أنه يجب أن يكون هناك شيء من التعديل في الراتب كذلك.»

انفجر فيها ساخراً وهو يقول: «اسمعي إنني لن أتناقش معك بالنسبة إلى وجبة طعام. وعلى كل حال، فإن مظهرك يدل على أنك تأكلين أقل من روبرت. متى تتعلم النساء أن الرجال لا يقرنون النحافة بالرغبة أبداً. إن المرأة الواثقة من نفسها والسعيدة بجسدها كما هو، والتي تستمتع بطعامها وتظهر ذلك، هي أكثر جاذبية بكثير من بعض النساء العصبيات القلقات دوماً على وزنهن ولا يأكلن إلا القليل.»

تنفست سارة بعنف، ثم أعادت الكرة بعد أن عدت في ذهنها للعشرة قبل أن تقول باختصار: «إن شهيتي لا تشوبها شائبة. وإذا أنا كنت أميل قليلاً إلى النحافة فهذا عائد إلى القلق والإجهاد وذلك نتيجة التهديد بفقداني عملي، وليس عن رغبة مني في تجويع نفسي لكي أرضي رجلاً ما.»

قال غراي بلطف: «إنني مسرور لسماع هذا. فإنني لا أريد أن يضيف روبرت إلى مشكلاته العاطفية، عادات سيئة غير صحية في طعامه.»

ردت عليه بحدة: «إذا كنت قد فكرت حقاً بأنني قد أفعل مثل هذا، فيدهشني سبب استخدامك لي للعمل.»

ساد صمت طويل من ناحيته إلى درجة ابتدأت تظن معها

بأنه ترك سماعة الهاتف، ولما أوشكت أن تضع السماعة بدورها، من باب المعاملة بالمثل، قال لها بهدوء: «ليس رأيي فيك هو المهم. ولكن رأي روبرت. وإلى جانب هذا...» وسكت عن الكلام عندما سمعت سارة بوضوح صوت جرس الباب يقرع، ثم قال: «أخشى أن عليّ أن أذهب. إنني اتوقع رؤيتك صباح الغد. إذن، الساعة الثامنة، إلى اللقاء يا سارة.»

عندما وضعت السماعة، اكتشفت أنها كانت ترتجف في اعماقها، وعندما أغمضت عينيها وقد ساورها الاشمئزاز من نفسها، تفجرت الدموع من عينيها.

ماذا جرى لها؟ لقد سبق وعرفت تماماً نوع شعوره نحوها وما يكنه لها من عداء، ومع هذا، لأنها تحدثت معه قليلاً، أخذت تتصرف كالطفل الذي اعطي للتو، ما تشتهيه نفسه.

حسناً، انها لن تسكن معه في بيته. وتصورت نفسها تنزل من غرفتها، في الصباح، لتتناول الفطور مع روبرت فتجده هو قد سبقها حيث جلس يتناول القهوة يطالع صحيفة الصباح. وربما يكون مرتدياً معطف الحمام وشعره ما يزال مبللاً. لم يسبق أن عرفت نفسها بهذا الشكل من قبل، وأن من الممكن أن تساورها مثل هذه التصورات الصريحة، حتى إلى درجة... وأخذت تتنفس بعمق مرة بعد أخرى محاولة أن تخفف من أفكارها الملتهبة.

ذهبت إلى فراشها مبكرة لكي تتمكن من مباشرة عملها باكراً. ولكن نومها كان متقطعاً، وعندما تصاعد رنين المنبه، كانت قد سبق واستيقظت قبله بمدة طويلة، وبدلاً من

أن تستسلم لحماقة التمدد في فراشها في انتظار رنينه، نزلت إلى المطبخ حيث صنعت لنفسها كوباً من الشاي، ثم اغتسلت وارتدت ملابسها.

إختارت ملابس مناسبة لطبيعة عملها الجديد. فارتدت سروالاً قطنياً عملياً، وفوقه قميصاً مقفولاً مزركشاً، ثم أخذت معها كنزة لاحتمال تحول الجو إلى البرودة رغم السماء الزرقاء.

انتعلت حذاءً خفيفاً. ودست في حقيبة يدها الواسعة، مجموعة كبيرة من الأوراق والأقلام والدفاتر، حتى إذا ما استطاعت ان تعرف من روبي في أية مرحلة تعليمية سيكون، يمكنها أن تضع له، عند ذاك، برنامجاً يمكنها على ضوئه أن تعلمه، بينما يكون هو، في نفس الوقت، مستمتعاً بوقته.

ومع أن غراي اشترط عليها توقيع عقد بأنها ستبقى في العمل سنة على الأقل، فهو لم يقل لها ما هو المتوقع منها عندما يذهب روبي إلى المدرسة في مطلع السنة المدرسية، ثم تذهب لإحضاره عند الظهر لتبقى معه إلى حين عودته هو من العمل. ولكن، ماذا بالنسبة للوقت بين هذين الموعدين؟ هل عليها أن تكون مسؤولة عن روبي حياتياً كما لو كانت بديل أم له... فتشتري ثيابه، وتغسلها وتكويها، وتبقى في المنزل لاحتمال حدوث مشكلة ما في المدرسة؟

إنهم الآن في عطلة مدرسية، وما زال هناك الكفاية من الوقت لتتاكد بالضبط، مما يعتمل في ذهن غراي من هذه الناحية. إن ثمة شيئاً واحداً مؤكداً وهو أنه ليس بالرجل

الذي يتأخر عن أن يخبرها بالضبط عما يريده ويتوقعه منها.

كانت الساعة الثامنة إلا عشر دقائق عندها وصلت وبعد أن أوقفت سيارتها بشكل لا يشكل عائقاً امام سيارة غراي، اتخذت طريقها نحو المنزل. وبينما كانت مترددة في أن تقرع جرس الباب الأمامي، أو تستدير حول المنزل إلى الباب الخلفي، إذ بالباب الأمامي يفتح، ليقف غراي فيليبس على عتبته مفسحاً لها الطريق لتدخل.

كان يرتدي، بدلاً من معطف الحمام الذي سبق وتخيلته فيه، بذلة كحلية وقميصاً ناصع البياض، بالاضافة إلى ربطة عنق مخططة. واعترفت لنفسها وهي تدخل المنزل، بأن تأثيره على حواسها كان بنفس القوة كما لو كان بملابسه العادية.

وماذا يعني بالنسبة إلى رجل فارع القامة عريض المنكبين يرتدي بذلة ثمينة داكنة اللون بنفس البساطة والعفوية التي يرتدي بها بنطال الجينز؟ ربما الجواب يكمن في ثقة غراي بنفسه، التي تجعله يرتدي مثل هذه الملابس المكلفة بهذه السهولة والعفوية.

وبينما وقفت مترددة لا تدري إن كان عليها أن تقصد المطبخ مباشرة أم لا، أغلق هو الباب الأمامي.

وعندما استدارت بحركة آلية، رأته ينظر إليها، متفرساً في ملابسها العادية البسيطة وقد رفع حاجبيه.

قالت على الفور: «إنك لم تذكر رغبتك في أن ارتدي زياً رسمياً، فأنا لست مربية متخرجة وقد فكرت في أن روبرت سيشعر براحة اكثر معي إذا...»

فأكمل لها الجملة ساخراً: «إذا بدوت كفتاة مراهقة اكثر منك راشدة؟»

مراهقة؟ هذه سخافة منه. وإذا كان يعني أن ملابسها هذه أصغر من أن تناسب سنها... ولكنها ما لبثت أن تملكها الذهول إذ قال لها بلطف، بينما كانت تحدق فيه بغضب: «إنتبهي، فهو ما زال صغيراً.»

وابتدأ يتأملها بنظرات تهكمية وهي تقف صامتة حتى تضرج وجهها وبان السخط في عينيها.

أما ماذا كانت على وشك أن تنطق به، لو لم يفتح باب المطبخ فجأة، ولو لم يندفع منه روبي راكضاً نحوها يلقي بنفسه بين ذراعيها المفتوحتين، فهذا ما ليس عندها فكرة عنه... ولكن، في الوقت الذي انحنت فيه لتمسك بالصبي الصغير ترفعه إلى ما بين ذراعيها وتهتف باسمه، في هذا الوقت، كان غضبها قد تلاشى تماماً إذ تملكها التأثر لسرور روبي هذا برؤيتها.

قال غراي لابنه، وكان هذا قد أحاط رقبة سارة بيديه رافضاً تركها: «هل صدقتني الآن؟»

ألقت سارة على غراي نظرة سريعة لترى عينيه وقد اكمد لونهما، وأشاح بوجهه عنها بسرعة وكأنه لا يريدها أن تنظر إليه مواجهة.

لقد سبق وقال روس إن غراي قد سعى، باستماتة، لأخذ حق الوصاية على إبنه. فإذا كان حقاً يهتم بابنه فلاشك أنه يشعر بمنتهى الألم وهو يرى أن ابنه يعتبره شخصاً غريباً يخاف منه ولا يكن له أية مودة.

كان روبي يقول لها: «يقول أبي إنك ستأتين كل يوم

للعناية بي.» وشعرت سارة بالألم وهو يقول (أبي) في الوقت الذي كان سنه يدعوه إلى أن يقول (بابا).

أجابته: «نعم، هذا صحيح يا روبي.»

بينما كان غراي يقول لها مقطباً جبينه: «اعطني إياه. إنه ثقيل الوزن بالنسبة إليك.»

ثقيل الوزن بالنسبة إليها؟ وأوشكت سارة أن تنكر أنها من الوهن بحيث تعجز عن حمل طفل في السادسة من عمره، وخصوصاً إذا كان بالغ النحول مثله. ولكنها سرعان ما تذكرت أن غراي هو والد روبي، وأن من جملة مهامها التي هي في مصلحة روبي، أن تبني علاقة متينة بين الأب وابنه لكي يشعر روبي بالحب والثقة بأبيه، وهذا ما يتعينّ على كل ولد أن يشعر به لكي يتمكن من النمو بمشاعر ناضجة وكاملة.

على كل حال، عندما حاولت أن تناول الأب ابنه، شدد هذا من قبضة ذراعيه حول عنقها، وقد تصلب جسده رافضاً ما كانت تقوم به.

قالت له ببشاشة متجاهلة نظرة الضراعة التي بدت في عينيه عندما أخذه أبوه منها: «لقد أحضرت بعض الأوراق معي، يا روبي، وغداً، إذا شئت، يمكننا أن نذهب إلى السوق ونشتري بعض اقلام التلوين.»

قال روبي: «بل اليوم. أريد أن أذهب اليوم.»

ولكن سارة هزت رأسها وهي تجيبه بحزم: «كلا، يا روبي. لا يمكننا الخروج قبل أن احصل على سيارتي الجديدة، لأن السيارة التي معي الآن ليس فيها أحزمة أمان للمقاعد.»

كان هذا أحد الأشياء التي أصرت عليها عندما صممت

على شراء سيارتها المكشوفة المتألقة. ذلك أن حزام الامان للمقعد الخلفي هو اكثر من ضروري إذا هي شاءت أن تخرج بها مع روبي.

قالت له باسمة: «ولكننا سنجد أشياء كثيرة نعملها اليوم. هل تناولت فطورك؟»

عندما هز رأسه نفياً، قالت: «لماذا، إذن، لا تدع أبو... بابا يذهب إلى العمل؟ عندئذ تتناول الطعام ثم نقرر، أنا وأنت، ما الذي سنصنعه هذا النهار.»

وبينما كانت تتكلم، كان غراي قد اتجه نحو المطبخ. وتبعته سارة لتصافح نظراتها مائدة المطبخ الخشبية الواسعة ونصف دزينة الكراسي التي حولها. كانت المائدة، كما هو حال المطبخ، مصممة لتسد حاجة اسرة كبيرة. ولكن، كل ما كان فوقها هو فنجان قهوة وبقية قطعة خبز محمص في صحن.

ولسبب ما، أشعرها منظر ذلك الطبق وفنجان القهوة بالألم في أعماقها. كيف يمكنها أن تلوم غراي فيليبس على موقفه هذا من بنات جنسها؟ فمن المفروض أنه كان قد أحب والدة روبرت عندما تزوجها، وتوقع أن يتشاركا في أسرة سعيدة متآلفة، بدلاً من أن تخونه هي باستمرار، ثم تتركه بعد ذلك آخذة معها إبنه.

كان غراي قد وضع روبي الآن على الأرض، ليندفع الصبي حالاً نحو سارة ثم يقف بجانبها. قال غراي لها: «لقد صنعت لك نسخة من المفاتيح.» وأدخل يده في جيبه ثم أخرجها يناولها إياها. وبينما هو يفعل ذلك، احتكت يده بغير عمد بمعصمها ما جعلها تسحب يدها

بسرعة وقد شعرت بالتوتر لهذا، وسرت الحرارة في ذراعها.

قال لها بذهن غائب وقد قطب حاجبيه: «سأعود هذا المساء عند الساعة السادسة.»

وللحظة تساءلت سارة عما يكون عليه الأمر لو كانت هي متزوجة من هذا الرجل وكان روبي ابنهما. هل تراه كان سيتركها عندذاك، بعد أن يربت بلطف على وجنتها، قائلاً إنه لن يتأخر؟

وذهلت سارة وهي تشعر بجسدها يتجاوب مع هذه التصورات العاطفية الخطرة، بينما كان غراي إلى جانبها يمد يده يرفع فنجان القهوة إلى شفتيه ثم يعيده مشمئزاً إذ يجد القهوة قد بردت.

ترك أخيراً القهوة وقطعة الخبز المحمص دون أن ينهيهما، ثم انحنى يلتقط حقيبته اليدوية التي كانت على الأرض مسندة إلى الكرسي.

وقبل أن يتجه نحو الباب، تردد لحظة وهو ينظر إلى روبي، وبينما كانت سارة تتمنى، بصمت، لو يقوم بحركة عاطفية نحو ابنه. ولم يقم هو بأية حركة للتقارب معه، وإنما قال فقط باقتضاب: «كن مؤدباً يا روبرت.» ثم ذهب. وسمعت وقع خطواته على أرض الردهة الخشبية، قبل أن تسمع الباب الأمامي يصفق خلفه.

قال روبي: «سارة... سارة، إنني جائع.» كان روبي يشدها من كمها وهو يرفع ناظريه إليها. كان فمه يشبه فم أبيه بالضبط كما لاحظت سارة وخفق قلبها لهذه الملاحظة، ثم ابتسمت له وهي تسأله عما يحب أن يأكل.

الفصل السادس

مضى أسبوع، ومع أنها، وروبي، قد أقاما معاً علاقة ممتازة، كانت سارة تشعر بأنها لم تقم بأي عمل لتحسين العلاقة بين روبي غراي. ولكن، كيف يمكنها ذلك في الوقت الذي لم يكن روبي يرى أباه فيه، إلا في أوقات قليلة؟ وفي عدة مناسبات عاد غراي إلى البيت في وقت متأخر، بعد أن كان قد اتصل بها هاتفياً من المصنع ليخبرها بأنه سيتأخر، سائلاً إن كان في إمكانها أن تنتظر إلى حين عودته. وفي مثل هذا الوقت، تكون هي التي تضع روبي في فراشه وتقرأ له حكاية قبل النوم.

لاحظت أن غراي كان متضايقاً من رفضها النوم في منزله، ولكنها كانت مصممة على الالتزام بقرارها هذا. لتراه في الصباح واقفاً بجانب مائدة المطبخ يرتشف بسرعة نصف فنجان القهوة البارد الذي يبدو أنه فطوره الوحيد، وكان هذا كافياً ليجعلها تشعر بالألم من أجله، ولكنها كانت في نفس الوقت، تعلم أنها أضعف من أن تحتمل العيش معه تحت سقف واحد.

وبعد، ما الذي يجعل هذا الشعور يتملكها لأجله في الوقت الذي لا ترى منه أي تشجيع على ذلك؟ كما أنها لم تعرف عن نفسها قط من قبل استسلاماً لمشاعر عاطفية كهذه، والذي يعني... ما الذي يعنيه هذا؟ أهو أنها وقعت في حبه؟ وفي سنها هذا؟ إن عليها، بالتأكيد، أن تكون أسمى من أن تشعر

بهذه الحماقة. ذلك أن الوقوع في مثل هذا النوع من الحب السريع، هو من تصرفات الأحداث وصغار السن. ولكن، مع النضج والخبرة، ينشأ الحب الحقيقي ببطء، ومع المعاناة أحياناً، كنبات رقيق في حاجة دائمة إلى الريّ والعناية...

وإلى جانب هذا، فإن مشاعرها ينبغي أن تكون أكثر عمقاً من مجرد الانجذاب العاطفي والولع برجل سلوكه هو أبعد ما يكون عما اعتادت أن تحلم به مثلها العليا. وفي الصباح، وهي تراقب عبوس غراي أمام فنجان قهوته البارد... وعندما ترى كيف يتحول روبي عنه قادماً إليها، عند ذلك تشعر بالألم لأجله... وفي المساء، عندما يعود من عمله منهكاً متوتراً، تود لو تؤمن له الراحة، لو تشاركه هذا العبء، أن تفتح ذراعيها له وتضمه هو أيضاً كما تفعل مع روبي، ان تغرقه بفيض من عواطفها وحنانها... ولكن، ربما يتحرك هو هذه الأثناء أو يقول شيئاً أو يقوم بعمل ما، مما يوجه انتباهها إلى جاذبيته كرجل ومن ثم تتغير مشاعرها هذه بصورة مؤلمة لتصبح عنيفة مما يجعلها تشعر بالإحراج والكدر.

لم يكن هذا ما يسمى بالوقوع في الحب، بل كان الحب نفسه، ذلك الخليط المعقد من المشاعر والرغبات والذي تشعر بديهياً ومنطقياً أن ليس لها الحق في الشعور به، ولكنه يستمر في النمو داخلها.

ولكن، هل يمكنها أن تحبه بينما هو ما يزال من جوانب كثيرة، غريباً عنها؟ ذلك أن الإلفة التي يخلقها وجودها في منزل شخص ما، لساعات كثيرة من النهار، تكشف نواح كثيرة من حياتهما، ولكن هذه تفاصيل منزلية مألوفة كأن

يكوي قمصانه بنفسه ويغسل ثيابه... وكأن لا يكون عنده فكرة عن قياس ملابس ولده، وكذلك شراؤه ثياباً جديدة لروبي حالما جاء ليعيش معه، بدلاً من ثيابه التي صغرت على قياسه، ولكن ليس منها ما كان قياسه صحيحاً كما يبدو ولا مناسباً لصبي يعيش في الريف في منزل محاط بحديقة واسعة.

لقد كان روبي في حاجة إلى ثياب خشنة للعب في الحديقة وليس إلى تلك الثياب الداكنة القديمة الطراز التي وجدتها في خزانته. واعترفت بأن روبي بحاجة إلى أم، ولكنها تنبهت إلى أنها يجب أن لا ترتكب خطأ تركها روبي ينظر إليها على هذا الأساس. وذلك لمصلحته هو اكثر منه لمصلحتها، فهي من النضج بحيث تعلم جيداً مقدار الألم الذي سيشعر به عندما يحين وقت رحيلها عنه بعد مرور سنة.

لقد كانت تقوم بكل ما في وسعها، فتأتي، عرضاً على سيرة والده أثناء الحديث، مثلاً، جاعلة إياه وكأن غراي جزء مهم من حياة روبي حتى ولو رفض روبي بعناد أن يعترف بذلك.

كان هذا النهار عيد ميلادها، وهذه الليلة، وعدا روس وسالي باصطحابها لتناول العشاء خارجاً. فقد وجدت بطاقتي معايدة هذا الصباح على مائدة الفطور حين استيقظت، كما أن سالي وروس استيقظا مبكرين خصيصاً لكي يكونا معها أثناء فتحها لتلك البطاقتين.

وعندما خرجت من البيت، أخذت تقارن بين دفء العواطف الذي يسري بين أفراد اسرتها، وبين الوحشة في

حياة روبي العائلية. لقد أرسل إليها والداها بطاقتي معايدة ورسالة طويلة مليئة بالمحبة. وبطاقات من أخيها واسرته في كندا، ومن أبناء أعمامها وخالاتها. ومن أصدقاء المدرسة والجامعة القدامى الذين تفرقوا الآن في جميع أنحاء البلاد وأوروبا في مهن مختلفة. وهذه الليلة كانت مدعوة إلى مطعم محلي خاص وفخم.

وفي عطلة نهاية الأسبوع حيث لا عمل لديها لأن غراي كان سيبقى في المنزل للعناية بابنه بنفسه، أخذتها سالي إلى أقرب مدينة، حيث أصرت على أن تشتري لها ثوباً جديداً رغم احتجاج سارة بأنه غالي الثمن جداً.

قالت سالي وهي تبتسم: «لقد حصلت على منحة سخية لعملي في مجال سمسرة العقارات في الفترة الماضية، وهذا يجعلني أقل شعوراً بالذنب لإسرافي على نفسي. ماذا تظنين رأي روس في هذا؟» وعرضت أمامها ثوباً أسود مخرماً مع صندل مصنوع من الأربطة.

أجابت سارة بصراحة: «عندما تلبسين أنت هذا الثوب وتخرج للاحتفال بعيد ميلادي، أظن أنه سيتمنى لو كنت أنا بعيدة من هنا مليون ميل.»

كان يقلقها في البداية، أن وجودها ربما كان يضايق زوج ابنة عمها مسبباً بعض الاحتكاك والاختلاف بينه وبين زوجته. ولكن سالي طمأنتها بقولها إن روس كان زوجاً في غاية من السماحة بالنسبة إلى هذه الأشياء. وأضافت مبتسمة: «وإلى جانب هذا فإن الجدران بين غرف المنزل بسماكة عدة أقدام. وتعرفين بنفسك صعوبة سماع حتى رنين الهاتف من غرفة لأخرى. ولهذا فإن المسألة في

وجود أشخاص بالغين تحت سقف بيتك غير مهم، وإنما المهم أن يكون ثمة أولاد في المنزل يندفعون إلى غرفة نومك في أوقات غير مناسبة مما يجعلك تشعرين حقاً بالإحباط.»

بعد أن أمضت سارة عطلة نهاية الأسبوع بعيداً عن روبي، زاد هذا من تعلقه بها، طالباً الإطمئنان على الدوام، بأنها لن تذهب بعيداً وتتركه، ملحاً على أن تمنحه الكثير من الإحتضان والعطف الجسدي.

كان صبياً عامر القلب بالحب، كما أدركت سارة من أحاديثه المتفرقة عن أمه وعن حياته مع جدته، انه لم ير من أمه حباً كبيراً بشكل ملحوظ.

كما لاحظت سارة قلقه الدائم من أن يلمسها بأصابع لزجة، وكيف أنه، أحياناً، ينفر وكأنه ينتظر منها النفور. ذلك أن أمه، كما علمت من ثرثرته البريئة، كانت أظافرها طويلة ودائماً مطلية باللون الوردي، وتلبس دوماً أحذية بكعوب عالية. وربما لم تكن سارة عادلة، كما اعترفت لنفسها، وذلك إذ ابتدأت تشعر بأن زوجة غراي السابقة لم تكن تلك الأم الحنون كما كانت تدعي... وهي الأم التي فضلت أن تتخلى عن ابنها لجدته، وذلك لكي تصبح حرة في أن تعيش حياة امرأة عازبة.

حاولت سارة جهدها، أن لا تدين والدة روبرت بغير عدل، محاولة أن تذكر نفسها بأن حياة أحد الوالدين قد تكون صعبة جداً، إذ لا يمكن أن ينتظر منهما، أن يكرسا لأولادهما كل ثانية من حياتهما.

والشيء الثابت هو أن الأم حاولت أن تغرس في نفس

روبي خوفاً ثابتاً ورفضاً لأبيه، وكان على سارة فقط أن تذكر اسم غراي لابنه، لكي ترى ملامح هذا تتقلص وتلتوي. ومع ذلك، عندما تأخر غراي في عمله مساء الجمعة، قال روبي: «إنني مسرور لأن بابا تأخر، وبذلك يمكنك أن تبقي إلى جانبي فترة أطول. أليس كذلك؟»

كانت تلك هي المرة الأولى التي يدعو فيها أباه، بابا، مما جعل سارة تأمل في أنه، مع الوقت، سيتخلص من شعور الكراهية هذا نحو أبيه.

وهذا الصباح، أخبر غراي سارة، بأنه سيعود باكراً. ولهذا لم تجد حاجة لأن تخبره بأن عليها أن تترك المنزل عند الساعة السادسة بسبب دعوة العشاء تلك. ولكن الساعة الآن أصبحت السادسة والربع دون أن يبدو له أثر. وعندما اتصلت بالمصنع، لم تحظ بجواب من أحد.

ونظرت إلى ساعة الجدار وهي تعض على شفتها، ثم قررت ان تنتظر حتى السابعة قبل أن تتصل بسالي لتخبرها بعدم استطاعتها الحضور في الوقت المحدد.

وفي النهاية كانت الساعة السابعة وعشر دقائق عندما اخذت سماعة الهاتف لتتصل بابنة عمها. وردت عليها سالي بسرعة. وعندما علمت من سارة أن غراي لم يعد بعد، هتفت قائلة: «آه، كلا... ألم تخبريه هذا الصباح بأننا سنخرج؟»

فاعترفت سارة قائلة: «كلا، لأنه قال إنه سيعود باكراً. وقد اتصلت بالمصنع، ولكن لم يكن ثمة جواب. وأنا لا يمكنني أن اترك روبي وحده.»

قالت سالي: «هذا غير ممكن طبعاً. إن المائدة في المطعم محجوزة للساعة الثامنة والنصف... وأنا أشك في

أنهم يقبلون تغيير الوقت، فالمطعم عليه إقبال كبير.»

قالت سارة: «اسمعي. إن لم استطع القدوم في الوقت المناسب، ما الذي يمنعكما، أنت وروس، من أن تذهبا وحدكما؟»

فأجابت سالي تذكرها: «ولكن هذه دعوة بمناسبة عيد ميلادك يا سارة. يا لهذا الرجل. ماذا يظنك؟ أليس عنده شيء من الكياسة فيتصل بك ويخبرك...»

قاطعتها سارة: «إنه في العادة، حريص جداً في مثل هذه الأمور. اسمعي، سأنتظر إلى السابعة والنصف، فإن لم يعد، سأتصل بك لأخبرك.»

اقتربت الساعة من السابعة والنصف، وحان وقت نوم روبي، وليس ثمة أثر لغراي، وتنهدت سارة وهي تتصل بإبنة عمها. وكانت سالي متضايقة إلى حد الغضب لهذا الوضع. ولكنها قبلت الواقع حيث لم يكن ثمة خيار أمام سارة سوى البقاء إلى جانب روبي.

قالت سالي: «أرجو أن تدعي غراي يعلم عن سوء تصرفه هذا.» وطمأنت سارة إلى أنها ستذهب مع روس بدونها فلا يكون هذا السماء قد فسد تماماً، وتابعت تقول: «مع أن هذا ليس عدلاً حيث أن المناسبة هي عيد ميلادك والمفروض أن نحتفل به جميعاً.» وبعد أن طيبت خاطر إبنة عمها، التفتت لترى روبي واقفاً قريباً منها وقد بان القلق الشديد على وجهه.

وتألمت جداً لشعوره ذاك بالخوف... والضعف... وهو يرى كيف أن وعود الكبار لا يعتمد عليها وكذلك حبهم. وحملته تحتضنه بصمت لتطمئنه، ثم قالت ببشاشة: «هيا يا روبي... إنه وقت الاستحمام.»

فقال وقد استحال عبوسه إلى ابتسام: «أيمكنني أن احظى بقطعة من الكعكة بدلاً من العشاء؟»

فهزت سارة رأسها نفياً، ذلك أنها، وروبي قد امضيا الصباح يصنعان كعكة عيد ميلادها، ليأكلا منها بعد الظهر في أثناء وجبة الشاي.

قالت: «لا كعك عند النوم، يا روبي. ما رأيك في تفاحة حلوة بدلاً من ذلك؟»

فأومأ برأسه برصانة. كان ولداً مطيعاً... مطيعاً وهادئاً إلى حد كبير أحياناً...

بطبيعة الحال، كان لنشأته في منزل جدته دور كبير في هذا. ولم يكن ثمة ضرر من الأخلاق الطيبة القديمة النمط. ولكن في حالة روبي، فانه كان في حاجة إلى بعض النشاط والحيوية، وقلة التوتر والخوف كان لا بد منه حين يدخل مدرسته الجديدة.

كانت سارة تخشى من أن تكتسحه قوة زملائه الذين في مثل سنه ويقهره نشاطهم وحيويتهم، فينسحب عائداً إلى قوقعته. وقد سبق وأجرت بعض الاستعلامات عما إذا كان ثمة بعض الأمكنة حيث يوجد بعض النشاطات يمكنه أن يشترك فيها ويتمكن من ثم، من مقابلة أولاد في مثل سنه. وقد أخذته هذا الأسبوع للسباحة في وقت وجدت فيه أن بقية الأولاد يمكن أن يكونوا في ذلك المركز الرياضي المحلي.

وعند الساعة الثامنة، كان روبي قد استحم واستقر في فراشه. قرأت له سارة قصته المفضلة قبل أن يستسلم إلى النوم. ولاحظت أنه عندما يكون مستاء أو مكروباً فإنه يميل

إلى الأشياء التي ألفها يلتمس فيها التعزية والسلوى.

وحاولت، ببطء، أن توسع من أفقه، أن تساعده في أن يكون أقل خشية وشعوراً بعدم الأمان. ولكن ذلك يأخذ فترة طويلة لكي ينجح... إنه شيء لا يمكن تحقيقه بسرعة. شيء قد يسبب له من الضرر اكثر مما يسبب نفعاً عندما يحين، أخيراً، الوقت الذي يكون عليها فيه أن تتركه. هل سيعتبرها، عند ذاك، كغيرها من أولئك الكبار الذين هجروه، قسوة وأنانية؟

وتنهدت وهي تنزل إلى الطابق الأسفل، حاملة ثيابه القذرة لكي تضعها في الغسالة.

وما دام ليس لها خيار سوى انتظار عودة غراي، فمن الممكن أن تجد شيئاً مفيداً تمضي به الوقت. وفي المطبخ، كانت الأزهار التي سبق وجمعتها هي وروبي من الحديقة أثناء النهار، تضفي رونقاً على المائدة القاتمة تلك رغم أن أوراقها قد ابتدأت تتساقط. وقد أبدى روبي مهارة ملحوظة بالنسبة لصبي في سنه، إذ رسم صورة مقبولة تماماً لهذه الأزهار. وقد ألصقتها على لوح الملاحظات الذي كانت قد علقته في المطبخ. وأيضاً، وبمساعدة روبي، كانت قد استأذنت غراي قبل أن تفعل ذلك. وقد رفع حاجبيه قليلاً، عند ذلك، ولكنه لم يعلق بشيء. بل قال: «لا بأس، إذا كنت تظنين ذلك ضرورياً.»

ربما لم يكن ذلك ضرورياً، ولكنه كان مفيداً. وأثناء وجبات الشاي كانا، هي وروبي، يضع كل منهما قائمة بكل الأشياء التي كانا يرغبان في عملها، ومن ثم تلصق القائمتان على ذلك اللوح. وكان روبي يحسن القراءة ولكنه

كان ضعيفاً في الحساب، وكانت ساره تحاول أن تقويه في ذلك بأن تكلفه بجمع محتويات القائمتين كل يوم، وأن يطرح مجموع إحداهما من الأخرى، جاعلة من هذا التمرين، لعبة يستمتعان بها.

وفي الساعة العاشرة، وكان ذلك عند انتهائها من كيّ آخر قطعة ثياب، سمعت صوت سيارة غراي.

دخل المطبخ من الباب الخلفي بدلاً من الباب الأمامي. لقد كان يوماً دافئاً. وكان الجو خانقاً نوعاً ما، وفي الخارج، كان الهواء ما زال دافئاً في هذا الوقت من الصيف.

كان غراي قد خلع سترته وربطة عنقه. وكانت الأزرار العليا من قميصه غير مقفلة، كما أن جلده بدا رطباً، وكانت لحيته نابتة قليلاً.

كان، كما رأته ساره، مقطباً جبينه، وكشف نور المطبخ خطوطاً من التوتر بجانب عينيه وحول فمه. ولما كان منظره يثير مشاعرها على الدوام، فقد اعتادت في غيابه، أن تبذل جهدها لمقاومة هذه التأثرات. كما كانت رائحة عرقه تنتشر بخفة.

وزاد تقطيبه حين رأى ما كانت تقوم به، وكأنه كان، لسبب ما، لا يحب هذه الأعمال المنزلية. وسألها وهو يضع حقيبته على الأرض، ويجذب كرسياً ثم يتهالك عليه: «هل روبي نائم؟»

فأجابت: «نعم.»

فقال: «إذن، فلن اصعد إلى غرفته وأزعجه.»

ضغطت سارة شفتيها. ذلك أنه إذا كان من الصعوبة أن تجعل روبي ينظر إلى أبيه كشخص يمكن أن يمنحه الحب،

ثم ينشأ على تقارب منه، فإن ثمة صعوبة مماثلة في أن تجعل غراي يعترف بمسؤوليته في ان يمنح روبرت التشجيع والحنان اللذين هو في حاجة إليهما، وذلك لكي يتخلص هذا من تلك الكراهية التي يشعر بها نحوه هو.

قال غراي معتذراً: «إنني آسف لتأخري. لقد نشبت أزمة مع أحد المصدرين إلينا. وكان عليّ أن أذهب إلى لندن لحل الإشكال. لقد طلبت من ماري أن تتصل بك لتخبرك بأنني سأكون هنا حوالى الثامنة ولكن، مع الأسف، أخذت الأمور وقتاً أكثر مما توقعت.»

كانت ماري سكرتيرته، وهي امرأة في أواخر الثلاثينات من عمرها، ولم يكن ثمة فائدة من أن تخبره الآن بأنها، ليس فقط لم تستلم رسالته، وإنما كان لها خطة أخرى لقضاء الأمسية، قد فسدت.

ولما كانت قد فرغت من كيّ الملابس، ولم يعد ثمة حاجة لبقائها. إلتقطت حقيبتها وتفقدت مفاتيح السيارة.

وعندما اتجهت نحو الباب، سمعت غراي يفتح باب الثلاجة خلفها.

وسألها وهو يرفع ما بقي من كعكة عيد ميلادها: «ما هذه؟» وكان روبي قد أصر على أن يحفر عليها كلمة (عيد ميلاد سعيد يا سارة).

وأجابته بشيء من التصلب وكأنها تدافع عن نفسها: «إنها كعكة.»

فقال: «إذن، فهذا اليوم هو عيد ميلادك؟» كان ينظر إليها بإمعان بطريقة غريبة جعلت وجهها يتضرج احمراراً دون أن تدرك سبب ذلك. وتابع قائلاً: «أظن أن فتاة في سنك يكون

عندها، عادة، مخططات اكثر إثارة من مجرد صنع كعكة في المنزل هي وصبي في السادسة.»

وأثارت السخرية في صوته، والطريقة التي نطق بها هذه الكلمات، الألم والإستياء في نفسها، فأجابته بغضب: «في الحقيقة، كنت مدعوة إلى العشاء، وعلى كل حال، بما أنني لم أستلم رسالتك من سكرتيرتك، كما انني لا أستطيع ترك روبي وحده، وبما انك اكدت لي هذا الصباح بأنك ستعود باكراً...»

فقاطعها: «هل عندك موعد مع صديق؟»

لماذا جعل هذا يبدو وكأنه شيء مستحيل؟ هل هو يدرك ما في هذا من إهانة لها... ما أشد بعده عن الكياسة إذ يوجه إليها سؤالاً كهذا، وبهذه الطريقة إنها لن تخبره الآن مطلقاً أن موعدها هذا كان مع إبنة عمها وزوجها، بل أجابته بدلاً من ذلك: «نعم، هذا صحيح.»

وانتظرت اعتذاراً منه... أن يخبرها أنه آسف إذ افسد عليها الموعد ذاك، ولكنه، بدلاً من ذلك، قال ساخراً: «إن تركك له معلقاً يجعله، دون شك، اكثر تعلقاً بك. أليست هذه هي الطريقة التي يفكر فيها عقل المرأة؟»

وحدقت سارة فيه، وقد تحول كل حبها له إلى غضب لما تضمنه كلامه.

وقالت له بجمود: «ليس في إمكاني أن أتحدث عن النساء الأخريات، ولكن عقلي أنا لا يفكر بهذا الشكل. والآن، إذا كنت تسمح، ليلة سعيدة.»

وعندما وصلت إلى منزل إبنة عمها، كانت ما تزال ثائرة. وكان المنزل غارقاً في الظلام لأن روس وسالي خرجا بدونها ولم يعودا بعد. وفي غرفة الجلوس كانت بطاقاتها

مصفوفة على رف الموقد، تباً لغراي فيليبس... هل لأن زوجته من نوع النساء العابثات اللاتي يستمتعن بإيلام الآخرين، يتهمها هي بمثل هذا... ومنعت نفسها من الاستمرار في مثل هذا التفكير، لقد كانت تأخذ الأمور بشكل شخصي جداً... فتثير في نفسها مشاعر ليس نحو روبي فقط، وانما نحو غراي فيليبس الذي لا يكاد يشعر بوجودها، وصعدت إلى غرفتها لتتأهب للنوم وقد استبد بها التعب.

سألتها سالي: «لقد أخبرته إذن، عن مبلغ استيائك.»

أجابت سارة دون أن توضح لها ما حدث: «شيء من هذا القبيل.»

فعادت هذه تقول: «يجب أن لا تدعيه يستغل رقة قلبك، يا سارة، إنك موظفة عنده... مربية لإبنه، وليس لتكوني بديل أم.»

تنهدت سارة، ثم قالت: «عليّ أن أذهب الآن، وإلا تأخرت.»

ولم يكن في منظر سيارة غراي التي كانت واقفة خارج المنزل حين وصلت شيء غير عادي، ومع هذا، كان غريباً أن تدخل المطبخ لتراه خالياً والنور ما زال مشعشعاً.

وكان على المائدة نصف فنجان قهوة بارد، وصحن فيه قطعة بيتزا لا يجلب منظرها الشهية.

وفتحت سارة باب المطبخ الذي يقود إلى الردهة وقد قطبت جبينها.

كان السكون يعم المكان. ولم تعرف ماذا تفعل. وأخيراً، وجدت أن أفضل ما يمكنها عمله، هو أن تصعد إلى غرفة

روبي لترى ما إذا كان لا يزال في فراشه. ولكنها لم تكن قد نسيت بعد نظرة غراي إليها عندما ظنها تنقب في مكتبه. وإلى جانب ذلك، ماذا لو كان قد غلب عليه النوم... ليفتح عينيه فجأة فيراها؟

ومنعت نفسها من متابعة هذه التصورات وهي تتوجه نحو السلم.

لقد كانت موظفة... تأخذ أجرا على العناية بروبي. وكان في إمكانها أن تسمع خرير الماء في حمام روبي. ولكن لم يكن هذا ما جعل قلبها يهبط من موضعه، وإنما كان منظر غراي منبطحاً على سرير روبي، مستغرقاً في النوم، وهو ما زال في كامل ملابسه.

وعندما وقفت تحدق فيه، خرج روبي من الحمام وقد ارتدى بعض ملابسه، وهو يقول هامساً: «لقد رأيت حلماً سيئاً. فجاء بابا إلى غرفتي. لقد قال لي انه ليس عليّ أن اخاف لأنه كان هنا.»

في أي وقت آخر، كانت سارة ستشعر بالإبتهاج إذ تسمع روبي يدعو أباه (بابا) بطريقة يبدو بها قبوله ذلك وهو يقول أن غراي قال له (لا تخف) فليس ثمة شيء تخافه، تماماً كمثل شعورها بالإبتهاج إذ تعلم أن غراي سمع صوت إبنه يصرخ وأنه استجاب له.

وسمعت صوت روبي يهتف بها وهو يفتح باب غرفته متوجهاً إلى السلم: «إنني جائع يا سارة. أريد فطوري.»

وكانت على وشك أن تناديه ليرجع ويوقظ أباه. حين تحرك الأب من نفسه فاستدار وهو يتململ في نومه، محاولاً أن يشعر بالراحة في هذا السرير الصغير.

لا بد أنه كان مرهقاً إذ استطاع أن ينام في مثل هذه المساحة الضيقة، خاصة وروبي يشاركه فيها. وتراجعت سارة نحو الباب وهي تتوقع بين لحظة وأخرى، أن يفتح عينيه. ولكنه، بدلاً من ذلك، مدّ ذراعيه لتصطدم يده بالكأس المغطى الذي يحوي عصير الفواكه والذي تضعه عادة بجانب سرير روبي.

واندفعت سارة غريزياً، ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً سوى التقاط الكأس من على السجادة المبللة. ولكنها، عندما كانت راكعة على الأرض بجانب السرير شعرت فجأة، بيد غراي تلامس شعرها.

وارتجفت لهذا الشيء غير المتوقع، ولم تستطع أن تتحرك... أو تتنفس، أو تقوم بأي شيء... وتحركت أصابعه ببطء في شعرها. وصدر عنه صوت مبتهج بالغ العمق والرقة وهو يلف شعرها على يده، ثم يجذبها إليه بلطف.

كانت عيناه ما زالتا مغمضتين، وكان هو ما زال مستغرقاً في النوم دون أن يعي ما يفعل كلياً، وهذا يعني... هذا يعني أن عليها أن تزيح يده عن شعرها الآن، ومن ثم توقظه. ولا أحد يعلم من تراه قد ظنها، ربما امرأة غير معروفة كانت له علاقة ما معها...

وازدردت ريقها بصعوبة. كانت من القرب منه الآن بحيث استطاعت أن ترى مسام جلده، ولحيته النابته القاتمة، وأهدابه الكثيفة. ولكي تمنع نفسها من فقد توازنها، وضعت كفها، غريزياً، على صدره فشعرت بضربات قلبه.

وتسارعت خفقات قلبها وهو يلامس أذنها، وتوتر

جسدها بأجمعه متجاوباً مع لمساته تلك، وبدلاً من أن تبتعد، زادت من اقترابها منه، بينما كان عليها الابتعاد قبل أن ينتبه ويدرك ما الذي يفعل، وما الذي كانت هي تشجعه وتسمح له بعمله.

وعندما شعر غراي بمقاومتها، شد على جسدها بقوة جعلتها تصرخ ألماً وهي تشد نفسها إلى الخلف لتتخلص من قبضته بعدما شعرت بالعار.

فتح عينيه على الفور، وسرعان ما كان يقطب جبينه وهو يحدق فيها.

وانتصبت سارة على قدميها بانفعال، وهي تقول متلعثمة وقد بان عليها الذعر: «إنك أوقعت كأس العصير. إنني آسفة إذ ايقظتك.»

كان ما يزال مقطباً جبينه، وأدركت أنه كان يفكر... محاولاً أن يلتقط بقايا حلم كاذب.

وأدركت أنه كان يحدق في وجهها بارتياب، وأخذ قلبها يخفق عالياً، وشعرت بالغثيان، والضعف... وتملكتها الخشية من أن يتذكر، فيلومها... والخوف من أن يعلم أنها هي من كانت بين ذراعيه، ولكنه عندما تكلم، سألها بغيظ: «وما الذي أفعله أنا هنا؟» وكان واضحاً أنه لا يتذكر شيئاً مما حدث، وهذا ما جعلها تقول: «قال روبي إنه رأى حلماً مزعجاً، وأنك أنت جئت إليه. ويبدو ان النوم غلبك وأنت معه.»

همهم غراي وهو يدلي ساقيه إلى الأرض، وما لبث أن أخذ يشتم وهو يقول: «يا للتعاسة... ظهري.»

كانت سارة قد اتجهت نحو الباب. وسألها: «كم الساعة

الآن؟» وعندما اخبرته، أخذ يشتم مرة أخرى وهو يقول: «تباً لذلك. إن عندي اجتماعاً خلال نصف ساعة. عليّ أن اتصل بماري لتأخيره.»

كان ما يزال عابساً وقد بدا جلياً أن أفكاره مركزة على عمله. ولم يبد عليه أنه يتذكر ما حدث، ومع هذا، عندما فتحت باب الغرفة، نظر إليها متفرساً في وجهها المتضرج.

لم تجرؤ على الوقوف اكثر من ذلك، خوفاً من أن يتذكر ما حدث، فاستدارت تفتح الباب وتسرع خارجة. وفي المطبخ، كان روبي قد وضع فطوره بنفسه. وكان حول فمه شارب من الحليب. ونظر إلى سارة بابتسامة عريضة وهي تدخل المطبخ.

بعد ذلك بنصف ساعة، كان ظهرها إلى الباب، عندما دخل غراي المطبخ. أحست بذلك على الفور. هل تراه تذكر... أم أنه كان من استغراق في النوم بحيث لا يتذكر أنه لمسها وأخذها بين ذراعيه؟

وسمعته يفتح باب الثلاجة، فاستدارت رغماً عنها. كان قلبها يخفق عالياً من القلق والألم. وبدا عليه أنه بعيد عنها بأفكاره... ونظرت إليه في بذلته الداكنة الأنيقة... ولم تستطع أن تصدق أنه كان منذ فترة... وازدردت ريقها مذكرة نفسها بأنها لم تكن هي التي أخذها بين ذراعيه... ولم تكن هي التي كان يحتضنها بعنف.

كان قد اخرج من الثلاجة شيئاً من عصير البرتقال، وأوشك أن يستدير ناحيتها، فأسرعت تشغل نفسها بروبي وما يحتاجه.

سألها روبي: «هل سنأكل اليوم أيضاً من كعكة عيد ميلادك، يا سارة؟»

كانت سارة تحس بأن غراي يراقبها متفرساً، لتشعر بوجهها يتوهج بالإحمرار الذي انحدر إلى عنقها. ورفضت أن تدير رأسها لتنظر إليه لكي تعرف السبب في مراقبته هذه لها.

وعندما انتهى من فطوره بعد عشر دقائق، التقط حقيبته ثم اتجه نحو الباب حيث توقف برهة ليقول لها باختصار: «من فضلك يا سارة أريد أن أكلمك للحظة واحدة.»

تبعته إلى الردهة وقد توتر جسدها. لا بد أنه تذكر أخيراً، وهو الآن يريد أن يسألها لماذا لم توقفه عن الاستمرار في تصرفه ذاك... لماذا لم توقظه من نومه... لماذا هي...

ولكنه قال لها: «أظن من الأفضل أن يمنع روبي من أكل المزيد من كعكة الحلوى، لأنني أظن أنها السبب في ذلك الحلم المزعج الذي رآه والذي منعنا، أنا وهو من النوم البارحة.»

حملقت سارة فيه وهو يتابع قائلاً: «في الحقيقة كنت أظنك أكثر تعقلاً من أن تسمحي له بأكل هذا النوع من الحلوى... مع كل ما تحويه من سكر وسمن...»

قاطعته قائلة: «لقد اتبعت وصفة تحوي القليل من السكر والسمن.»

كيف يجرؤ على القول إنها هي المسؤولة عن الكابوس الذي رآه روبي في نومه؟ وأوشكت أن تصارحه بأنه إذا كان يهتم بالكوابيس التي يراها روبي في منامه حقاً، فعليه أن يفتش عن سبب ذلك في البيت وليس في الطعام الذي

تصنعه. ولكن المفاجأة إزاء انتقاده غير العادل ذاك، وهذا في الوقت الذي كانت تتوقع فيه أن يطرق موضوعاً مختلفاً تماماً، أدارت هذه المفاجأة رأسها بحيث لم تستطع أن تنطق بكلمة.

واستدار ليخرج، حين وقف فجأة وقد تصلب جسمه ووضع يده على ظهره وقد تقلص وجهه. إنه الألم الذي سبق وشعر به حين استيقظ من نومه فجأة.

لقد انتابته الآن صدمة بالغة وهو يرى شعوراً بالانجذاب نحوها... نحو المرأة التي كان قد صمم على أن يبقي نفسه بعيداً عنها، ألا وهي سارة!

في ما بعد، وهو في طريقه إلى المصنع، أخذ يتساءل لماذا يشعر أنها تهدد هذا الحاجز الذي وضعه بينه وبين رغباته التي فرضها على نفسه؟ وشتم نفسه وهو يعترف بأنه ما كان له أن يستخدمها عنده. ولكن، ما الذي كان عليه أن يفعل غير ذلك؟ لقد كانت هناك رغبة روبي... روبي إبنه... ولده الذي أنشأته أمه على الخوف منه. ومع ذلك تعلق به روبي بعد الرعب الذي شعر به من جراء ذلك الكابوس، وهو يناديه متوسلاً إليه أن يبقى معه. وعندما احتضن إبنه الصغير الضعيف بين ذراعيه، غمره شعور جارف بالحب والألم... حب لهذا الصبي الذي كان جزءاً منه، والألم للسنوات التي فصلت بينهما، والأحزان التي تشوب علاقتهما.

لم يستطع أن يفهم ما الذي حدث له. فهو، بعد أن تخلص من كل مشاعره، موحياً إلى نفسه بأن من الأفضل أن لا يشعر... أن لا يحب، بعد كل ذلك إذا به يشعر فجأة بأن كل

إجراءات الوقاية هذه التي اتخذها قد تحطمت وتلاشت لتتركه جريحاً ينزف... لتتركه هشاً ضعيفاً غارقاً في الآلام... لتتركه مشوش الذهن مقهوراً بمشاعره... لقد صدم وهو يرى ما حدث له... وتنفس بعمق وهو يتصور سارة بين ذراعيه.

وأطلق شتيمة إذ أخذ السائق الآخر يطلق نفير سيارته ينبه إلى إنارة الضوء الأخضر، بينما هو جالس يحدق في اللاشيء. ينبغي أن يتوقف كل هذا. فليس ثمة مكان في حياته بعد لهذه المشاعر الخطرة.

لقد اعتقد مرة، في ما مضى، أنه وقع في الحب، وأنه كان محبوباً. وكان مخطئاً في الحالتين. وهو لن يسقط مرة أخرى في هذا الشرك أبداً أبداً.

الفصل السابع

اعترفت سارة لنفسها بأن غراي يحيرها. فقد كان رجل المتناقضات. كان رجلاً يبدي منتهى العناية والحب من أب لابنه، وفي المرة التالية تراه ينسحب منه تقريباً وكأنه يخشى هذا الحب.

ولكن، مم تراه يخاف؟ إنه لا يخاف من روبي طبعاً... ولكن، ربما يخاف من أن يشعر نحوه بالحب.

وعبست وهي تدير هذه الفكرة في ذهنها، لقد مضى الآن قرابة الأسبوعين على ذلك الوقت الذي وصلت فيه لتجده نائماً في سرير إبنه، ليأخذها أثناء نومه، بعد ذلك، بين ذراعيه محتضناً إياها.

ولكن، كلا، يجب أن لا تسمح لنفسها بأن تفكر... بأن تتذكر. لقد سبق وقررت عدة مرات، بأن عليها أن تنسى تلك الحادثة العابرة، ولا تفكر فيها ولا تتذكرها بقية حياتها. وإلا... إذا سمحت لما حدث ان يسيطر على أفكارها ومشاعرها... وأحست برجفة في جسدها.

كانت تشعر بأن ليس ثمة مستقبل يجمع بينها وبين غراي، ولا أمل أبداً في أن يبادلها نفس مشاعرها يوماً، كانت تعرف ذلك من الطريقة التي كان يعاملها بها، من سلوكه المهذب البارد تجاهها والذي لا يخفي العداء الذي يكنه نحوها.

لقد استخدمها مربية لروبي لأنه لم يجد سواها. ولكنها تشعر الآن إلى أي حد يبلغ امتعاضه منها ومن وجودها في منزله. فهي ترى النظرة التي يرمقها بها كلما ركض إليها روبي لكي تحتضنه، أو كلما تحول إليها روبي يطلب منها شيئاً. فهي تعرف أن غراي يكره ازدياد تعلق ابنه بها عاطفياً.

وهي كذلك، كانت تشعر بنفس عدم الارتياح ذاك، من هذه الناحية، إنما لسبب مختلف تماماً.

فقد كان روبي صبياً هشاً ضعيفاً، وقد حاولت جهدها أن توسع من أفقه وذلك بتقديمه إلى أولاد آخرين. وقد نجحت في ذلك إلى حد ما. ولكنه ما زال متعلقاً بها... وما زال يعود إليها مسرعاً ليجلس بجانبها وكأنه يخشى ان تختفي في غيابه.

كان كل هذا ردة فعل طبيعية لما سبق ومر به من أحداث، بالطبع. ولكن ما كان روبي في حاجة إليه حقاً في حياته، هو وجود شخص دائم يمكنه أن يمنحه حبه ويعتمد عليه، وليس شخصاً مثلها جاءت إليه لتمضي معه وقتاً قصيراً ثم ترحل.

كان صحيحاً أن روبي أصبح الآن اكثر تجاوباً مع أبيه. وذلك بفضل تشجيعها هي له في أن يرى في غراي صديقاً وليس عدواً. وكان صحيحاً أيضاً أن غراي، هو أيضاً، قد أصبح متجاوباً مع ابنه، مظهراً نحوه رقة واهتماماً اكثر مما اعتاده... ومع ذلك، في الوقت الذي كانت، أحياناً، تهنيء نفسها، فيه على نجاحها في تقوية الرباط بين الاثنين، حين كان غراي يظهر عطفاً وحناناً عملياً نحو

روبي، إذا به يتراجع، بطريقة ما، وقد بدا عليه الحذر والتوتر، كما لو كان يخاف من أن يسمح لنفسه بأن يحب إبنه.

ولكن، أي نوع من الرجال ذلك الذي يتملكه مثل هذا الشعور؟ أي نوع من الرجال ذلك الذي يخاف من أن يحب ولده؟

إنه ذلك الرجل الذي سلب ولده منه، فهو يخشى، في أعماق عقله الباطني، من أن ذلك قد يحدث مرة أخرى. ان الحب مقترن دوماً بالألم، حتى أنه لم يعد يفرق بين الاثنين.

وتمنت سارة لو كان في استطاعتها أن تتحدث مع غراي عن مشاعره هذه بحرية أكثر وعن خشيتها هي من أن يسبب الضرر لروبي برفضه هذا له. فهو يعلّم روبي أن لا يثق بمشاعره الطبيعية، وأن يتخلى عن رغباته في أن يظهر نحو أبيه الحب والحنان. ولكن، حتى ولو كان غراي قابلاً للمناقشة في أمر كهذا، فإنها كانت تشك في أن يكون في إمكانها أن تتخطى حاجز الحب الذي تشعر به نحوه لدرجة تسمح لها بأن تخوض هذا الموضوع بالصراحة المطلوبة.

وبسبب هذا، كما هو بسبب حبها لغراي، إبتدأت تتساءل عما إذا كانت هي الشخص المناسب حقاً للقيام بمسؤولية تعهد روبي.

لقد حاولت مرة، وهي في غاية التردد، أن تصارح غراي برأيها هذا، ولكن سرعان ما عبس هذا وتوتر فمه ليتهمها بمحاولة فسخ العقد الذي سبق ووقعاه معاً. وهكذا أرغمت

على التراجع عالمة بأنه من المستحيل عليها أن تعبر عما يقلقها بشكل مقنع.

لم يكن غراي ليثق بأي شيء مبني على العواطف. لقد أدركت هي هذا جيداً، مفكرة، بمرارة، في أنه لا بد قد أحب والدة روبي إلى حد جعله يتحطم بتحطم العلاقة بينهما.

ولكن، عندما حدثت سالي بذلك، وسمعها روس، هز رأسه بسرعة قائلاً لها: «ليس هذا ما سمعته مطلقاً، ذلك أن السبب الوحيد الذي جعلهما يتزوجان هو أنها كانت حاملاً، ويبدو أنه كان يضغط عليها لتحتفظ بالجنين. وفي الحقيقة، لم يدهش أحد حين فشل هذا الزواج لأنه كان مفهوماً، منذ البداية بأن العاطفة المحمومة التي كانت بينهما والتي أدت إلى الحمل بروبي، قد استحالت رماداً قبل الزواج بفترة طويلة.»

وعندما أبدت سارة الأسى لذلك، هز روس رأسه مرة اخرى، متابعاً: «إن مشكلتك هي أنك رقيقة القلب جداً، مثالية إلى درجة كبيرة.»

قاطعته سالي: «إن روبي هو الذي يستدر العطف. يا للصبي المسكين. من حسن حظه أن وجدك يا سارة.»

هزت سارة رأسها قائلة بحسرة: «اخشى أن أسبب له الضرر اكثر مما أنفعه. إنه في حاجة إلى من يبقى معه بصورة دائمة.»

فقال روس مستفسراً: «تعنين أن غراي ينبغي أن يتزوج؟ حسناً، لا أظن أنه سيفعل ذلك أبداً. فالإشاعات تقول إنه أقسم، بعد إتمام الطلاق، أنه لن يتزوج بعد ذلك أبداً. وهو

بالتأكيد ليس من ذلك النوع من الرجال الذين تتغلب عليهم المشاعر.»

قالت سارة: «كلا. إنه ليس كذلك.»

ومع ذلك، فإن غراي ليس بالرجل البارد. فهي تعرف ذلك حتى ولو لم يحتضنها في ذلك الصباح. وهو، منذ ابتدأت تعمل في منزله، أخذ يظهر حدة في الطبع كانت تتزايد على مر الأيام، وكذلك كان انتقاده لها بغير حق أحياناً لدرجة جعلتها تتساءل عما إذا كان يقصد أن يدفعها إلى فسخ عقد العمل ثم ترحل.

ولكن، لو كان حقاً يريد أن يتخلص منها، لكان أخبرها بذلك صراحة، وهو ليس بالرجل الذي يشعر بالجبن إزاء إتخاذ خطوة كهذه، فيقوم بمناورات تجعل مسؤولية ذلك العمل تقع عليها هي وليس عليه.

كذلك كان أحياناً، ينظر إليها وكأنه يكن لها الكراهية، كما أنه أخذ يتأخر في عودته إلى منزله مما كان يضطرها إلى التأخر ساعات عن موعد خروجها وهو الساعة السادسة مساء. وإذا ما احتجت على ذلك، كان يرد عليها قائلاً: «إنه سبق وطلب منها السكن في منزله، فالذنب في ذلك هو ذنبها هي.»

وهذه الليلة، على سبيل المثال، أخذت تفكر ملياً وقد أدركها الإجهاد بعد ما انتهت من كيّ القمصان المدرسية الجديدة لروبي، فقد كان وعدها، بعد أن اخبرته بأنها مدعوة إلى العشاء، وعدها بالعودة في السادسة. فقد كانت وعدت سالي وروس اللذين كانا قد دعيا إلى العشاء، أحد معارف هذا الأخير من رجال الأعمال، وعدتهما بأن تكون

معهما في هذه المناسبة، إذ كان ذلك الرجل قد حضر لمهمة تستغرق يومين فقط.

وطمأنتها سالي، وهي تحدثها لأول مرة، عن دعوة العشاء هذه، وزوجها، بأنهما لا يحاولان بهذه الدعوة له أن يكونا واسطة زواج، ولم تصدقها سارة تماماً ذلك أنها كانت ترفض على الدوام، مشاريعهما هذه.

على كل حال، فقد كانت الساعة الآن السابعة والنصف، وكان عليها أن تتصل بسالي لتخبرها بأنها قد لا تتمكن من الذهاب إليهما. وبدا الاستياء في صوت ابنة عمها وهي تقول: «ما هذا؟ لقد وصلت الأمور إلى حد لم يعد يصلح السكوت عنه. يبدو وكأنه يفعل ذلك متعمداً. هل اتصلت بالمصنع؟»

أجابت: «نعم. ولكن يظهر أن ليس هناك من يعرف مكانه، فقد خرج بعد الغداء في مهمة بعد أن ترك خبراً بأنه سيعود، بعد ذلك، إلى البيت مباشرة.» وعضت سارة على شفتها وهي تسأل سالي: «اتظنين أنه ربما وقع له حادث؟»

وتلاشى غضب سالي على الفور وهي تهتف: «آه، أرجو أن لا يكون ذلك. ولكن الأفضل أن تتحري عن ذلك، ولو كنت مكانك لفعلت...»

قالت سارة بقلق: «سأتصل بالشرطة.»

وبعد ذلك بنصف ساعة، بعد أن تأكدت من الشرطة من عدم حصول أي حادث يتضمن اسم غراي فيليبس، كانت تجلس قرب الهاتف وما زال القلق يتملكها من أن ذلك لا يعني بالضبط عدم حصول شيء له، عندما سمعت صوت سيارة غراي في الخارج.

وعلى الفور، تحولت مخاوفها إلى ثورة عارمة، ليس فقط لتأخره هذا، وإنما لما سببه لها من قلق ومخاوف.

وعندما دخل، كانت واقفة على قدميها شاحبة الوجه لشدة التوتر، وقد اتسعت عيناها والتمعتا في نور مصباح الردهة الخافت. وبدا قوامها الأنثوي في تلك العتمة الخفيفة، كأنه ليس من هذا العالم مما هز كيان غراي بصورة مفاجئة، ليشعر بألم لا يمكن احتماله وهو يحاول أن يمسك نفسه عن التقدم اليها وأخذها بين ذراعيه. ربما يريد أن يمحو، بحنانها وحبها، كل ما يثقل كاهله من ضيق وألم وكرب، فينس نفسه بين ذراعيها.

ولكن، كان عليه أن يعرف أولاً، ما إذا كانت تتفهم ذلك... وتتقبله، وما إذا كانت تكن له من المشاعر والحب ما يسمح له بإفراغ كل ما يعتمل في أعماقه، وذلك دون أي انتقاد له أو إدانة.

لكنه ما أن شرع لتحقيق ذلك، متقدماً نحوها بالخطوة الأولى، حتى تبخرت كل تصوراته تلك، وهي تسأله بصوت في برودة الثلج: «لقد وعدتني بأن تعود في السادسة، لأن عندي موعداً للعشاء هذه الليلة.»

كان لبرودة هذا الصوت الخافت والنظرة التي صحبته فعل ماء الثلج على جلده الحار، مما سبب له ما يشبه الألم، وجعل ردة الفعل عنده بالغة العنف، ليخرج عن طوره وهو يرد عليها بحدة: «وما الذي منعك من الذهاب إذن، مادامت دعوة العشاء اللعينة تلك، بمثل هذه الأهمية عندك؟»

حملقت سارة فيه وقد استبد بها الغضب والذهول، ثم

قالت بلهجة مماثلة: «إنك تعلم أنني لا يمكن أن أترك روبي بمفرده.»

أجابها ثائراً: «ولِمَ لا؟ لقد كانت أمه تفعل ذلك. ولأنها كانت تتركه دائماً وحده، تدخلت أمها وأخذته في رعايتها. حسناً، إذا كان ذلك العشاء اللعين مهماً عندك إلى هذا الحد... اكثر مما يهمك روبي... فلا تدعيني اعيقك. إذهبي الآن، ولا تكلفي نفسك عناء الرجوع.»

كان هجومه هذا شيئاً غير متوقع، كان ظلماً سافراً لم تستطع سارة، إزاءه، إلا أن تحدق في غراي مصعوقة غير مصدقة.

وشعرت بالدموع تتجمع في مآقيها. وأدركت، وقد تملكها الرعب، بأنها إذا بقيت حيث هي، فلن يكون في مقدورها أن تمنع نفسها من الإنفجار في البكاء. وأن تسمح لغراي بأن يشهد ضعف مشاعرها وهذا هو آخر شيء تريده. وهكذا قامت بالشيء الوحيد الذي أمكنها، وهو أن تختطف حقيبتها وتندفع نحو الباب المفتوح، مشيحة بوجهها عن غراي.

واستقلت سيارتها، مندفعة نحو الطريق، ولم تتوقف إلا عندما بلغت الطريق الرئيسي، وذلك لكي تهدىء من مشاعرها وتمسح دموعها وأنفها.

ولكن، فلتدع الدموع تجري كما تشاء الآن، لعلها تخفف مما تعاني.

وحدثت نفسها بأنها الصدمة فقط. إنها الصدمة، وهذا كل شيء. ولكن، وراء هذه الصدمة، تدفق سيل التعاسة والألم. ولم يخفف عنها أنها كانت تعرف حقيقة غراي، منذ البداية.

وأنها سبق وحذرت نفسها من السماح لمشاعرها نحوه بأن ترسم له صورة مغايرة اكثر لطفاً ودفئاً. وان الذنب ذنبها الآن في ما ينتابها من ألم وعذاب.

ولكن، أن يهاجمها بهذا الشكل في حين أنه هو الذي... وهزت رأسها وهي تعود إلى رفع منديلها إلى أنفها وقد توقفت عن ذرف الدموع.

ما زال ليس في إمكانها أن تصديق أنه طردها فعلاً من العمل، وأنه فقد أعصابه ليبدو بكل هذه الوحشية، وأنه فقد سيطرته على مشاعره بهذا الشكل وهو الذي كان دوماً... دوماً جم التحفظ في ما يقول أو يفعل... وهو الذي لم تسمع منه أبداً كلمة غير قوية أو منصفة.

وعندما وصلت إلى منزل ابنة عمها، كانت مشاعرها قد هدأت، ولكنها مازالت ترتعش شاعرة بالغثيان.

ما كانت سارة قط، فتاة ذات طبيعة انفعالية، فقد كانت دوماً تنتقد نفسها طبيعتها الهادئة الزائد عن اللزوم... وكانت تسيطر دائماً على مشاعرها وتصرفاتها... ولكن، هذا المساء...

واقشعر جسدها وهي تدخل المنزل الخالي، ثم تبدأ بتحضير كوب شاي وهي تحلل ما جرى.

أترى سبب غضبها العنيف غير المتوقع ذاك، هو انتقالها الفجائي من الخوف من أن يكون قد حدث لغراي حادث، وقد تصورته ملقى غائباً عن الوعي في أحد المستشفيات النائية، إلى الحقيقة المرة وهي تراه داخلاً بيته سالماً معافى غير مهتم بما سببه لها من قلق وخوف، هذا عدا عن تأخره في الوقت الذي كان يعلم فيه أنها مدعوة إلى العشاء؟

نعم، إن لها بعض العذر في تصرفها الذي بدر منها ذاك. ولكن، بالنسبة إلى غراي نفسه... فقد بدا عليه وكأنه قد رحب بغضبها ذاك، بل واستفزها لإظهار المزيد... ومع ذلك، لا بد أنه علم بخطئه، ولكنه طردها.

واقشعر جسدها مرة أخرى إنما بشكل أعمق. ان عليها أن تعود طبعاً، ولو لتشرح لروبي الوضع. ولكن، كيف وبماذا تفسر له الأمر؟ ما الذي ستقوله؟ إنها، بالتأكيد، لن تفعل أي شيء يمكن أن يضر بالعلاقة الهشة التي يحاول أن يبنيها روبي مع أبيه.

وتملكها غضب من نوع آخر. ما الذي جعل غراي يتصرف بمثل هذه الأنانية والاهمال لمشاعر إبنه؟ ألم يدرك كم سيضر هذا بالصبي الصغير؟

وكان الوقت متأخراً عندما عادت سالي وزوجها، وطبعاً، أطلعتهما على كل ما حدث.

قطب روس حاجبيه وهو يفكر في تصرف غراي الذي استحال إلى الغضب. وقال لها: «أظن أن تصرفه هذا نتج عن وضع خاص لا دخل لك أنت فيه.»

فابتدأت تقول: «لكن روبي...»

فهز رأسه قائلاً: «إنني أعرف مبلغ اهتمامك به، يا سارة، ولكنك، كما سبق وقلت لك، رقيقة الاحساس جداً. ولكننا، أثناء إقامتك بيننا، مسؤولان عنك إلى حد ما. نعم، إنني أعرف أنك راشدة... وقادرة تماماً على تقرير أمورك، ولكنني لست راضياً أبداً عن الطريقة التي ابتدأ غراي يعاملك بها. إنني، في الحقيقة، أفكر في أن أقابله كي أتحدث إليه.»

قالت سارة متوسلة: «أوه، كلا... أرجوك. لا تفعل ذلك.»

وشحب وجهها إلى درجة جعلت روس، رغم تأثره الشديد، جعلته يذعن قائلاً: «لا بأس، إذا لم تريدي ذلك، ولكنني لا أستطيع أن اتظاهر بعدم الارتياح إذا أنت تركت العمل عنده.»

قالت سارة لهما معاً: «عليّ أن أعود لرؤية روبي، فليس من الممكن أن أتركه هكذا، فجأة، دون إيضاح، حتى ولو كان أبوه قد تحدث إليه في الأمر.»

قال روس: «لماذا لا ترجئي الأمر إلى أن يذهب معك واحد منا، أنا أو سالي؟»

ولكن سارة هزت رأسها، على الفور، قائلة: «كلا، إنني لن أختبىء خلف أي منكما، وكما سبق وقلت أنت، فأنا راشدة وقادرة تماماً على أن اسوي أموري بنفسي... الليلة انتهت، ولكن غداً.»

استيقظت سارة قبل الفجر إذ أن عينيها لم تعرفا الرقاد، ومن ثم ارتدت ملابسها بعناية، ولم تكن ملابس العمل العادية، بل كانت عبارة عن بذلة أنيقة تعكس مزاجها الصارم.

ولم تكن تنوي أن تقنع غراي بتغيير رأيه أو أن ترجوه متوسلة أن يعيدها إلى عملها، ولكنها ستذهب إلى روبي وتحاول أن تشرح له ما حدث بكل ما في وسعها من الرقة واللطف، دون أن تضع اللوم على أبيه بأي شكل كان. ذلك لأنها ليس في إمكانها ان تفعل ذلك، لأجل مصلحة روبي نفسه، قبل كل شيء.

وعندما أوقفت سيارتها أمام المنزل، بعد ذلك بنصف ساعة، كان متألقاً بالأنوار.

وقبل أن تنزل من سيارتها، إذا بالباب يفتح ويخرج منه غراي هابطاً الدرجات نحوها وهو يسألها بلهفة: «روبي... هل هو معك؟»

روبي... معها هي؟ وكان غراي قد أمسك بذراعها، لشدة لهفته، وكان من القرب منها بحيث أمكنها أن تشعر بالحرارة التي تنبعث من جسده. وكانت لحيته تظلل القسم الأسفل من وجهه. كما كان يرتدي قميصاً مقفولاً وبنطال جينز. وبدا عليه وكأنه امضى أكثر الليل مستيقظاً. وانتقلت عدوى قلقه إليها، فأظلمت عيناها من الخوف وهي تسأله بحدة: «كلا... إن روبي ليس معي. لماذا؟»

فأجاب: «إنني لم أجده... لقد أحضرت بعض العمل معي ليلة أمس ولكنني لم استطع النوم، لا أدري لماذا.» ولاحظت سارة أنه كان يتجنب النظر إليها. وكان صوته خشناً غير منتظم وكأنه يخفي مشاعر يخيفه أن تبدو.

وعاد يقول: «نهضت من فراشي باكراً، وصعدت لرؤية روبي، ولكنه لم يكن هناك. لقد فتشت كل أنحاء المنزل دون أن يبدو له أثر.»

ولم تكد تصدق ما جرى، وسألته بحدة: «والبارحة، هل صعدت لرؤيته بعد ذهابي؟»

ونظر إليها الآن بعينين حمراوين، نظرة غامضة اختلطت فيها المشاعر، ثم هز رأسه نفياً، ومع أنها لم تفصح عن انتقادها له، إلا أنه قال مدافعاً عن نفسه: «لقد احضرت بعض العمل لانجزه أثناء الليل، وفكرت في أنه لا بد نائم، فلم أشأ إزعاجه.»

وفكرت سارة في أنه هو الذي لم يشأ أن يزعج نفسه به،

ولكنها لم تصفح عن أفكارها هذه، فقد رأت من التعبير الذي كان يكسو ملامحه، مبلغ العذاب الذي يعانيه... وكذلك مبلغ الشعور بالذنب الذي يحسّ به. وانتقاده الآن لا يفيد بشيء.

وبقيت صامتة، ومضت برهة قال بعدها بصوت أجش: «أشكرك.»

دهشت، ونظرت إليه مذهولة بعينين متسعتين لتسأله بصوت مرتجف: «لماذا تشكرني؟»

فأجاب: «لأنك لم تصارحيني بما يجول في نفسك وهو أنه كان عليّ أن اصعد وأتفقده ليلة أمس.»

وخامرها العطف عليه وهي تحس بما يعانيه من مشاعر القلق واليأس والشعور بالذنب.

وتابع يقول: «إنني أعرف أنه كان عليّ أن افعل ذلك، ولكنني لم أفعل... وها هوذا الآن قد ذهب.»

سألته: «هل أنت متأكد من أنه ترك البيت؟»

فأجاب: «نعم. لقد فتشت كل غرفة وكل خزانة وكل مكان، أكثر من مرة، وكان أملي الوحيد هو أنه ربما قد ذهب إليك أثناء نومي.»

سألته وقد جف فمها من الخوف والقلق: «والشرطة؟ هل...»

فهز رأسه قائلاً: «كلا. لقد كنت على وشك الاتصال بك أولاً لأرى إن كان عندك، ثم لأسألك النصيحة.»

وحملقت فيه بذهول... لقد قال إنه كان سيسألها النصيحة.

فعاد يقول: «ألا تصدقينني؟ هذا لا يدهشني بعد الطريقة

التي تصرفت بها معك ليلة أمس... آه، يا للتعاسة... أين تراه يكون؟ ولماذا ذهب؟ لقد ظننت أنه قد ابتدأ يستقر... ابتدأ يدرك...»

قالت سارة برقة: «أظن من الأفضل أن نخبر الشرطة.» ودون وعي منها، نزلت من السيارة ثم وضعت يدها على ذراعه تسري عنه، وقد أثر في نفسها مشاعر العذاب التي يعانيها.

نظر إلى يدها التي استقرت على ذراعه، ثم إلى وجهها. وتسارعت دقات قلبها وهي تشعر بحرارة جلده وباختلاج عضلة ذراعه تحت لمستها.

واحتبست انفاسها حتى لم تعد تستطيع التنفس أو التفكير أو الحركة... وفجأة، تركته مبتعدة عنه وقد شحب وجهها، إذ انتبهت إلى عملها هذا وساورها الشعور بالذنب.

كيف يمتلكها هذا الشعور في الوقت الذي تتركز فيه كل مشاعرها وأفكارها على روبي؟ كيف تسمح لنفسها بأن تعود إلى الشعور بالانجذاب نحو غراي في الوقت الذي أظهر فيه بجلاء رأيه فيها ومقدار اهتمامه بها؟ هذا عدا عن عدم تجاوبه معها...

واتصلت بالشرطة، تطلب الرقم بأصابع مرتجفة وكان تجاوبهم سريعاً، ومسرياً نوعاً ما. وقيل لها إن احدهم سيكون عندهم خلال نصف ساعة، وطلبوا منها عدم الاستسلام للخوف.

عدم الاستسلام للخوف؟ وكيف يكون هذا ممكناً؟ وأخذت تفكر كيف قابلت روبي لأول مرة، وهو يعتقد أن في استطاعته أن يجد طريقه إلى لندن وحده.

وكاد قلبها أن يكف عن الخفقان واستدارت إلى غراي قائلة: «هل تظن أنه ذهب إلى لندن، إلى مدبرة منزل جدته؟ ذلك أنني عندما قابلته لأول مرة...»

وهز غراي رأسه قائلاً: «ليس عندي أية فكرة. إنك تعرفينه اكثر مني... وتعرفين طريقة تفكيره وكيفية تصرفاته. لقد كنت متأكداً من أنه لا بد ذهب إليك أنت. وهذا كل ما أمكنني التفكير فيه. حتى أنني فكرت في أنك...» وسكت وهو يهز رأسه. ولكنها كانت قد خمنت ما كان على وشك أن يقوله.

وسألته بصوت مرتجف رغم تكلفها الهدوء: «هل ظننت ذلك حقاً؟ انه من الممكن أن أشجعه على ترك منزله... وهو صبي بهذا العمر؟»

فأجاب: «إنني آسف... يبدو أن تفكيري، هذه الأيام، غير متزن. قد تكونين سمعت عني أن تجاربي مع النساء جعلتني أفقد ثقتي بهن.»

نظرت إليه سارة متألمة، ثم قالت بهدوء: «إن الثقة، كغيرها من المشاعر، ذات وجهين، فأنا لا يمكن أن أقوم بأي عمل قد يسبب أذى لروبي، ومهما كان شعوري الشخصي نحوك أنت. إنني أعلم أن ردة فعلي كانت أعنف مما ينبغي، ليلة أمس.»

كان هذا الوقت هو أنسب الأوقات لكلام كهذا حيث أن الحواجز بينهما قد انهارت بعد ما جمع بينهما القلق على روبي. وعادت تقول: «ولكنني شعرت بالذنب للتخلي عن إبنة عمي وزوجها في آخر لحظة، خصوصاً وقد كانا يستضيفان رجل أعمال لمصلحة مشتركة.»

وقطب غراي جبينه وهو يسألها: «هل كنت مدعوة إلى العشاء مع ابنة عمك؟»

فأومأت بالإيجاب، لترهف اذنيها بعد إذ سمعت صوت سيارة تدخل إلى باحة المنزل، وقالت: «لا بد أن هذه هي سيارة الشرطة.»

فأجاب غراي باقتضاب وهو يتجه نحو الباب الأمامي: «سأذهب لأدخلهم.»

وبعد ذلك بنصف ساعة، بعد ما انتهت الشرطة من تفتيش المكان والخزائن، أعطتهم سارة قائمة وصفت بها ما يرتديه من ملابس.

وأخبرتها الشرطية أن تصميمه على ترك البيت ربما كان نتيجة حالة طارئة. وكانت بهذا، تحاول التسرية عنها إذ أن الولد، حسب خبرتهم، مهما كان عمره، إذا هو أراد أن يهجر منزله، فإنه يأخذ معه أحب شيء من مقتنياته، حتى بعض ثيابه للتغيير، ولكن روبي لم يأخذ شيئاً، وكما يبدو من حالة أدراجه، فقد ارتدى شيئاً من الثياب على عجل.

ثم سألتها: «هل حدث شيء يوم أمس قد يكون أثار استياءه؟»

وفكرت سارة قليلاً، ثم هزت رأسها قائلة: «كلا، حسب ما أعلم.»

فحدقت الشرطية فيها بنظرة ثاقبة وهي تعود فتسألها: «ألم يتشاجر مع ولد آخر؟ ولا حتى معك أنت؟»

ومرة أخرى هزت سارة رأسها نفياً، وهي تفكر، ببطء، في ما حدث أمس.

كانت قد أدلت إلى الشرطية بعرض مختصر عن حياة

روبي الماضية، وكيف جاءت هي للعناية به، ولكن دون أن تتطرق إلى نوعية علاقته مع أبيه. فإذا أراد غراي، هو نفسه، أن يخبرهم فهذا شأنه، أما هي، فليس لها أن تنوب عنه بذلك.

كان التحقيق معهما، هي وغراي، يجري على انفراد لكل منهما، وبعد ذلك جمعا معاً. وكانت الأسئلة تتركز على روبي ونمط حياته الماضية... أسئلة جعلت سارة تنفر، مع أن غراي، كما لاحظت، قد أجاب على كل الأسئلة بكل صدق وهدوء، حتى عندما كانت بعض الأسئلة فيها ما لا يعجبه.

وتوقف الشرطي الذي يحقق معه، مرة أو مرتين، مانحاً إياه الفرصة ليجيب.

وعندما اعترف غراي بأنه لم يتفقد إبنه عند المساء، قال الشرطي بعطف: «حاول أن لا تلوم نفسك، يا سيدي. فهذا شيء نحن جميعاً نخطىء فيه أحياناً.»

وسئلت سارة، بعيداً عن غراي، عما إذا كانت قد لاحظت أن والد روبي يسيء معاملة إبنه سواء جسدياً أم معنوياً. ولكنها هزت رأسها نفياً وهي مرتاحة على أن ذلك صحيح. ذلك أن غراي قد لا يكون أباً مثالياً، ولكنها برأته من القسوة على ابنه.

ومن انه حاول مرة أن يؤذي روبي بأية طريقة كانت. ورحلت الشرطة بعد أن جمعوا ما استطاعوا جمعه من معلومات، وبعد أن عرضوا أن يتركوا واحداً منهم في البيت معهما، ولكن غراي رفض ذلك.

وبعد رحيلهم، أبدت سارة رغبتها في الذهاب هي أيضاً، ظناً منها أنه قد يرغب في البقاء وحده. ولكن، أدهشها أن

يهز رأسه وهو يقول بسرعة، متوسلاً تقريباً: «كلا... أرجوك... إذا أمكنك البقاء...»

وعندما لم تجب، أضاف متردداً وكأنه يتلمس الكلمات المناسبة: «إنك... تعرفين روبي... إنه يحبك... يحتاج إليك. وعندما يجدونه... فإذا كنت أنت هنا...»

إذن، فإنه يريدها لأجل روبي وليس لأجله هو... ولكن، ما الذي كانت تتوقعه غير هذا؟

وكان أن اتصلت هاتفياً بسالي طبعاً، وأخبرتها بكل ما حدث. وحالاً، وافقت إبنة عمها على أنها يجب أن تبقى مع غراي.

وأثناء فترة الصباح المملة، عندما صعدت إلى غرفة روبي تلتمس السلوى بين اشيائه، وجدت أن غراي وقد سبقها إليها، جالساً على سرير إبنه وظهره إلى الباب وقد حنى رأسه بينما كان ممسكاً باللعبة التي كان يفضلها روبي.

كانت على وشك أن تتراجع خارجة من الغرفة بصمت، عندما قال بصوت اجش: «كلا، لا تذهبي. تباً، عندما أفكر كم هو صغير... وكم هو ضعيف هش... كان يجب أن اكون في الخارج أبحث عنه، وليس هنا أنتظر.»

هزت سارة رأسها، ولكنها عندما أدركت أنه لا يراها، اقتربت منه وقالت بصوت منخفض: «كلا، لقد طلبت منا الشرطة أن نمكث هنا في حالة كان هناك أي خبر.»

فقال محتجاً: «ولكنني أشعر هنا بالعجز، أشعر بأن عليّ القيام بشيء ما. إنه إبني، إنه ولدي.» وسكت لحظة ليعود فيقول بصوت اكثر خشونة: «أظنك تفكرين في أن

مغادرته للبيت ذنبي أنا. ولكن صدقيني، ليس في إمكانك أن تلوميني اكثر مما ألوم نفسي. فقط لو كنت تفقدته عند المساء...»

وكما سبق وفعلت من قبل، مدت سارة يدها تواسيه، كانت لمسة بسيطة صامتة تحمل معنى التسرية والعطف، وقد أخرسها الخوف، من أن تنطق بكلمة.

عندئذ، استدار غراي إليها وقد بان على وجهه مظهر الاحتقار لنفسه، وهو يصرخ فيها: «ولكن، لماذا؟... لماذا فعل ذلك؟ هل هو حقاً يخاف مني؟... هل هو حقاً يكرهني إلى هذا الحد؟»

هزت سارة رأسها على الفور، قائلة بلطف: «كلا... كلا... إنه لا يكرهك بالطبع.»

ويبدو أنها ازدادت اقتراباً منه، دون وعي منها، لأنها عندما نظرت إلى رأسه المنحني، كان بينهما بضعة سنتمترات فقط، ومع أن صوتاً في داخلها حذرها من القيام بأية حركة، إلا أن الحنان والعطف اللذين هما جزء من شخصيتها، دفعاها إلى أن تمد يدها إلى رأسه كإشارة صامتة تدل على تعاطفها معه.

قال: «آه، يا سارة... إذا حدث له أي شيء...»

ولكن، لم يكن كلامه هذا هو الذي بعث الرجفة في اوصالها، إذ أن تصرفه قد تجاوز كل ما كانت تعرفه عنه، ذلك أنه مد ذراعيه يلفهما حول وسطها ليشدها إليه بعنف لم تستطع معه أن تتنفس، ووضع رأسه على صدرها وكأنه يلتمس الحنان، وقد تصاعدت من بين شفتيه همهمات تفصح عما يعانيه من عذاب.

هتفت به بصوت مرتجف: «غراي...»

ولكن، عندما لم يتحرك، بل على العكس، شدد من احتضانه لها، علمت سارة، عند ذاك، أن عليها هي أن تتخلص من وضعها الشاعري ذاك غير المتوقع.

الفصل الثامن

ومدت سارة يدها تدفعه عنها، وعندما شعر بذلك قال من دون أن يرفع رأسه: «كلا، أرجوك يا سارة.»

ارتجفت وهي ترى من نفسها تجاوباً معه.

وفجأة، أخذ يشتم بوحشية وهو يقول وكأنه يهذي: «تباً، لم أعد أعرف ما الذي يجري لي... إنك في خيالي ليلاً نهاراً... هل تعلمين هذا؟ إنني أحلم بك، وأستيقظ والألم ينتابني لأجلك... متصوراً... إنني أريدك... بحاجة إليك... إنني...»

وسكت فجأة وكأنه انتبه إلى ما كان يقول، ورفع رأسه عن جسدها، مشيحاً به إلى جانب وهو يقول مشمئزاً من نفسه: «حتى في هذا الوقت... وكل شيء يدعوني إلى أن أركز افكاري كلها على روبي... أجد في نفسي الرغبة نحوك.»

قالت ثائرة: «إنها الصدمة. إن لها، أحياناً تأثيراً غريباً على بعض الناس. إنها تجعلهم يقومون بأشياء غير معقولة... إنها...»

وللمرة الأولى، تسقط الحواجز التي بينهما... للمرة الأولى، يتماثل الوضعان ويلقي غراي جانباً بدرع الكراهية لها الذي كان يحتمي خلفه، ليكشف لها حقيقته البشرية الضعيفة إزاءها.

للمرة الأولى، جمع بينهما، بعد ذلك الاختلاف، قلقهما

على روبي، ولأن طبيعتها هي أن تقدم الحنان والسلوان لكل من تراه متألماً، لم تشأ أن تصد غراي، ولم تفكر في أن تبتعد عنه أو تستنكر ما يقوم به.

ولكن الذي لم يخطر لها ببال، هو أن تشعر هي ايضاً، بمثل الحاجة والرغبة الجارفة اللتين يشعر هو بهما.

ولكنها لم تنس روبي. إنه ما زال هناك، في قلبها ووجدانها، شاعرة نحوه بنوع مختلف من اللهفة والألم.

وعندما وجدت نفسها بين أحضان غراي، مرة أخرى، وقد ألقاها على سرير روبي واستلقى هو إلى جانبها، اغمضت عينيها وقد دار الوجود بها.

والآن، وقد انتهى كل شيء، وعادت إلى الأرض. لتدرك، ما الذي فعلت... أرادت أن تتحرك... أن تزحف إلى مكان ما حيث تتقوقع على نفسها وتموت، ولكنها كانت من التعب والإرهاق بحيث لم تستطع أن تتحرك.

وشيئاً فشيئاً، استسلمت سارة إلى رقاد لم تستطع مقاومته... وعندما تصاعد رنين الهاتف استوت جالسة في السرير، وقد انتبهت تماماً، إلى أن اسم روبي على شفتيها. وسرعان ما كانت تحسن من مظهرها، كيفما اتفق، ثم تهبط السلالم لتطلع على ما جد من أخبار عن روبي وقد ساورها الشعور بالذنب لانشغالها عن ذلك بتقاربها مع غراي، محاولة أن تقنع نفسها بأن بعض الناس يتصرفون، أحياناً، بشكل غريب غير متوقع، وذلك تحت تأثير ضغوطات نفسية معينة.

ولكن، ربما كان هذا التفسير يناسب سلوك غراي، ولكنها لن تسمح بأن تخدع نفسها بهذا الشكل، فهي تحب غراي...

وهي أرادته بكل مشاعرها، ولكنها لم تتصور قط أن من الممكن أن تتصرف بهذا الشكل، خصوصاً وهي تعلم أن غراي لا يكن لها أي شعور بالحب. ولكن، لا شك أنها رغبة مؤقتة تجاهها.

وفجأة، تجمدت في مكانها وقد انتابها الاشمئزاز من نفسها... هل تراه حقاً كان يشعر نحوها بالرغبة، أم أنه كان يلتمس أية امرأة يمكن أن يجد الراحة في وصالها... لا فرق عنده بينها وبين أية امرأة أخرى؟

وانتابها الغثيان. لماذا لم تفكر في ذلك من قبل؟ لماذا انتظرت حتى الآن، بعد أن فات الأوان وتصرفت بمثل تلك الحماقة الشنعاء، متخلية عن مثالياتها وعقيدتها لتتصرف مثل... مثل اولئك الذين يطلقون العنان لعواطفهم بدلاً من أن تحتفظ بكل شيء لمن تحبه وتتزوجه باقتناع عقلي وعاطفي؟

حسناً، ما هو الرباط الذي يشدها إلى غراي إذن؟ لا شيء... لا شيء مطلقاً.

لا شيء سوى حبهما لروبي، وقلقهما واستماتتهما في أن يعثرا عليه، وتمزقهما العاطفي من جراء العذاب والكرب اللذين يعانيان، هذا إلى عدم قدرتهما على القيام بشيء تجاه اختفائه هذا... لا شيء سوى هذا يجمع بينهما.

ولكن، ماذا تراها تفعل الآن؟ أتلتمس لنفسها أعذاراً كمن لا عذر له؟ وتنهدت.

إن ما حصل بينهما الآن، مفهوم أن يحصل بين والدين اضاعا ولدهما، فهما يلتمسان التعزية بين ذراعي الواحد منهما والآخر. ولكن، أن يحصل هذا بين شخصين لا

يتبادلان الحب، بل ويكره واحد منهما الآخر بشكل واضح، بينما يحبه الثاني سراً...

وأعاد أفكارها إلى روبي سماعها صوت سماعة الهاتف تعود إلى مكانها، فتابعت هبوط السلالم إلى الردهة حيث كان غراي جالساً. ونظر إليها، ثم حول نظراته بعيداً. وتجمدت في مكانها وهي تكافح دموعها ورغبتها في الهرب.

ولكنها عادت تذكر نفسها بأن اللوم على ما حدث بينهما، يقع عليه هو أيضاً، كما يقع عليها. فرفعت رأسها بكبرياء وهي تسأله إن كان ثمة أي خبر جديد بالنسبة إلى روبي.

هز رأسه وهو ما زال محولاً نظراته عنها، ثم قال: «كلا، إنها الشرطة. يسألون عما إذا كان قد عاد إلى البيت، ويبدو أنهم فتشوا في كل مكان، كما أن أحداً لم يشاهده، وهذا جعلهم يفكرون في أنه قد يكون اتجه إلى لندن. تباً، عندما أفكر في حداثة سنه، وضعفه... لو فقط...»

وسكت ليدير وجهه لينظر إليها. وتضرج وجهها وهي ترى نفسها هدفاً لنظراته الثاقبة. وقال: «بالنسبة لما حدث... بيننا، إنني... لا أدري ماذا أقول...»

فقاطعته: «إنك لست في حاجة لأن تقول أي شيء.»

كان اليأس يبدو عليها. فهو سيقول لها إن هذا ما كان يجب أن يحصل... ولم يقصد مطلقاً ذلك. وهذا أوضح دليل على أنه لم يكن يريدها فعلاً... لم يكن يشعر نحوها بأية عاطفة.

وعادت تقول: «إننا، نحن الاثنين، تصرفنا بشكل ينافي

خلاق.» وضغطت على الكلمات، رافضة أن تخضع للألم والعذاب اللذين تشعر بهما.

لم تكن تريده أن يظن أن ليس لها كرامتها. لم تكن تريده أن يقف ليقول لنفسه، إن ما حصل بينهما لا يعني شيئاً. إنها تريد أن تجعله يظن ولو كذباً، انها، مثله هو، تستنكر تماماً ما حدث.

وتابعت تقول: «إنني... إنني أعتقد أن بعض الناس يتصرفون أحياناً، بطريقة مخالفة للأخلاق تحت ضغوط نفسية معينة. ومن الأفضل... من الأفضل لنا، نحن الاثنين، أن ننسى كل شيء عما حدث. وعلى كل حال، عندما يعود روبي... حسناً، لن يعود ثمة حاجة بنا إلى أي اتصال آخر... أليس كذلك؟»

فأجابها غراي بصوت خشن غريب النبرات: «كلا، لا أظن ذلك. طبعاً إلا إذا...» وسكت وهو ما زال ينظر إليها وأنه ينتظر منها أن تقول شيئاً، ولم تدرك هي بالضبط تقريباً، ما الذي كان يتوقع منها أن تقول، قبل أن تسمعه يضيف باختصار: «إلا إذا حدث ظرف ما... وطبعاً يجب أن أعلم. لأتحمل مسؤوليتي الكاملة.»

ظرف ما؟ واتسعت عينا سارة بذهول وهي تدرك ما الذي يعنيه. ذلك أن آخر شيء فكرت فيه هو إمكانية حدوث الحمل عندها. وشعرت، لدى هذا الإدراك المفاجيء، ببرودة في أوصالها وغثيان في معدتها وجعلتها الصدمة تتمسك بحاجز السلم لتتخلص من ذلك الشعور بالغثيان دون أن تدري بماذا تجيب.

حامل..؟ كلا... لا يمكن لهذا أن يحدث، ليس بهذه

السرعة.. ليس بهذا الشكل الخالي من التخطيط والتفكير المسبقين... ما الذي جرى لها؟ هل كانت من الغباء بحيث لم تكن تعلم سهولة أن تصبح حاملاً؟ (حدث بالصدفة) أليس هذا هو الوصف الذي اعتادت معظم النساء إطلاقه على حمل غير مرغوب فيه؟ وقد يكون حدثاً سعيداً بالنسبة لكثيرات، أما بالنسبة إليها هي...

وانعصر قلبها وهي تفكر كم كانت تتمنى طفلاً من غراي في ما لو اختلفت الظروف، وكان حبها لغراي متبادلاً وكانت رغبته وحاجته إليها هي دائمة دوام الحياة كلها، وليس بصفة مؤقتة.

وحملها الألم الذي اشتد الآن لدرجة غير محتملة، على أن تقول له بقسوة: «حسناً، فلنرجو أن لا يحدث هذا... وعلى كل حال، فأنت لم تقبل قط بأن يجيء روبي إلى هذا العالم، أليس كذلك؟ و...»

فقاطعها وقد توترت ملامحه: «هذا ليس صحيحاً. إنني أعلم أن هذا ما تظنانه، أنت وروبي، وربما كل إنسان آخر كذلك. ولكن هذا ليس صحيحاً.» وضحك بخشونة وهو يتابع: «يا إلهي، ما كان لروبي أن يولد لو أن القرار كان بيد أمه. لقد أرادت أن تتخلص منه، وكان عليّ أن أمدها بالمال لكي تحتفظ بالجنين. وليس المال فقط، بل موافقتي أيضاً على الطلاق، ولولا هذا لأجهضت روبي. ولكن، عندما ولد روبي، وأدركت أية قوة أصبحت في يدها يمكنها ان تستغلها بالنسبة إلي، رفضت أن تنفذ ما سبق من اتفاق بيننا في أن تسلمني الطفل. رغم أنها لم تكن تريد قط أن تحمل بطفل مني. وأنا لا أصدق أبداً أنها يمكن أن تكون قد أحبت

روبي. حتى أنها لم تقبل بأن يعيش معها، ذلك أن أمها هي التي ربت روبي.»

وارتجفت سارة للمرارة التي بدت في صوته، ونسيت آلامها وهي ترى الصدق في لهجته وهو يتكلم.

وقالت وقد اقشعر جسدها: «ولكن، يبدو من لهجتك انك تكرهها.» وكانت كلماتها هذه نتيجة ما رأته في عينيه من ألم، ثم تابعت تقول: «ثم لا بد أنك كنت تحبها، لا بد أنكما تبادلتما الحب يوماً.»

فلوى شفتيه بمرارة وهو يقول: «هل كان الحب ضرورياً؟ كان ثمة رغبة بالتأكيد، ولكن سرعان ما اكتشفنا، نحن الاثنين، أن هذا لا يمكن أن يكون بديلاً للحب. وكان اكتشافنا هذا، بعد فوات الأوان، فقد كان روبي في طريقه إلى الحياة، وهكذا تزوجنا... يا للتعاسة، أين هو الآن؟»

وجعلها العذاب الذي لمسته في صوته، تتقدم مقتربة منه لتسري عنه، لتشاركه كربه. ولكنها توقفت فجأة وقد تذكرت ما الذي حدث بينهما، وحقيقة أنها هي آخر من يريدها أن ترفه عنه.

وتشوقت إلى أن تفعل شيئاً، أي شيء عدا عن الجلوس هكذا باستسلام، في انتظار أن يقوم الآخرون بالتفتيش... بالعمل، وإذا كانت هي تشعر بالإنتظار ثقيلاً إلى هذا الحد، فكيف بالأحرى، غراي الذي هو أبوه، والذي اعتاد أن تكون في يده مقاليد الأمور كلها؟

وعندما تعالى رنين الهاتف بعد ذلك بنصف ساعة، تجمدا، هما الاثنين، في مكانيهما وهما يحدقان فيه، وبدا

أن ليس منهما من أحس بالجرأة على التحرك نحوه. إلى أن قفز غراي فجأة فتناول السماعة قابضاً عليها بشدة، وهو ينطق باسمه متوتراً.

وأخذ قلب سارة يخفق بعنف وقد شملها التوتر والخوف، وذلك أثناء فترة السكون التي كان غراي يستمع فيها إلى محدثه على الجانب الآخر من الخط، وبدا وكأن ساعات طويلة مرت قبل أن تسمعه يقول بجمود: «نعم... نعم... لقد فهمت شكراً.»

ثم وضع السماعة في مكانها ببطء متعمد، جعلها ترتجف وقد توترت أعصابها خوفاً. وعندما استدار نحوها، كان وجهه خالياً من التعبير تماماً، بينما كانت عيناه فارغتين جامدتين.

وهبط قلبها، وجفت شفتاها مما جعلها تحاول أن ترطبهما بلسانها قبل أن تستطيع أن تسأله بصوت متهدج: «روبي... هل...؟»

«لقد وجدوه.»

وأرسل صوته في أعماقها موجة ألم... كان في صوته ذاك صدمة، وذهول... و...

وتجلت على وجهها صدمة وقد شعرت بالدوار. وعندما نظر إلى وجهها، قال فجأة يوضح لها الأمر وهو يتقدم إليها ليمسك بذراعيها وهو يقول بعنف: «سارة، لا بأس. روبي بخير. إنه سالم معافى لم يصبه ضرر. لقد وجدوه في كوخ قديم متهالك حيث كان مختبئاً. إنه فقط... إنه فقط أخبر الشرطة بأنه لن يعود إلى البيت... لقد طلبوا مني أن أحضر إلى المخفر. وأنا كنت أتساءل... إنني أعرف أنني

أثقل عليك بطلبي هذا بعد ماحدث بيننا مساء أمس... ولكن، هل لك أن تأتي معي؟»

ولم تستطع سارة الكلام. كل ما استطاعت أن تفعله هو أن تومىء برأسها إيجاباً وهي مازالت غير مصدقة أن روبي بخير بعد أن ظنت العكس.

وفي طريقهما إلى المخفر، بدا غراي متمالكاً نفسه ومشاعره، ولكن سارة تعلمت أن ترى العمق من الأشياء، ومن هذا أدركت أن ألمه لم يكن أقل من ألمها هي.

كيف أمكنها أن تكون من القسوة بحيث كانت تظن أن غراي لم يكن يريد إبنه، بينما هي ترى كم يعني له هذا الصبي الصغير، رغم رفضه أن يظهر ذلك. وذهلت وهي ترى نفسها تسبب له الألم بهذا الشكل، رغم أن ذلك صدر منها دفاعاً عن النفس.

كان ما اخبرها به روبي ببراءة عن والدته، جعل سارة تكون رأياً عن تلك المرأة بأنها كانت تافهة وسطحية، تهتم بنفسها وبإشباع رغباتها أكثر كثيراً مما تهتم بابنها. كما أنها كانت ماكرة كذلك، تستعمل روبي كمخلب ضد أبيه، لتستغل هذا الأخير في ابتزاز المال منه، بينما تشحن نفس الصبي، بكل قسوة، بالخوف من أبيه.

وعندما وصلا إلى المخفر، اقتيدا إلى غرفة صغيرة، حيث وجدا روبي، الذي كان في منتهى الخوف والإرهاق، في أحضان شرطية تسري عنه. وفي اللحظة التي رأى فيها سارة، تملّص من المرأة الأخرى ليهرع إليها. وانحنت هي دون وعي منها، لتصبح في مستواه، محتضنة إياه، وقد طفرت الدموع من عينيها.

وفي الناحية الأخرى من الغرفة، وقف غراي يتحدث إلى مفتش الشرطة الذي سبق وقاد حملة التفتيش عن روبي. وكانا يتحدثان بصوت منخفض، ولكن أذني سارة استطاعتا أن تلتقطا بضع كلمات تتعلق (بشجار) وأن (روبي كان مستاءً جداً) ولكن بكاء روبي لم يسمح لها بأن تسمع أكثر من ذلك.

وبعد ذلك بمدة طويلة، عندما كان روبي في فراشه مستغرقاً في النوم بسلام، واستطاعت هي أن تترك غرفته أخيراً، عرفت القصة كاملة من غراي الذي كان في انتظارها في المطبخ.

وقال بعد أن سألته إن كانت الشرطة قد استطاعت معرفة سبب هربه. ذلك أنها هي نفسها، خافت من أن تسأل روبي هذا السؤال لحالة الإرهاق والكرب التي كان يعاني منهما. قال غراي: «يبدو أن روبي سمعنا نتشاجر في تلك الليلة التي عدت أنا فيها متأخراً من العمل. وقد أراد أن يكون معك، كما يظهر... وهكذا، بينما كنت أنا مازلت في الطابق الأسفل، لبس ثيابه ثم خرج. ولكنه أضاع طريقه في الظلام ومن ثم استولى عليه الخوف الشديد. وعندما وجد ذلك الكوخ دخل إليه ولا بد أنه استسلم للنوم بعد ذلك. لقد كنت أظنني تقدمت في علاقتي معه، وكنت أظنه قد تغلب على كراهيته لي...»

وبدا في لهجته من الكرب ما أحست معه سارة بغصة في حلقها. وتاقت إلى أن تفتح ذراعيها له كما فعلت مع روبي. أن تحتضنه وتواسيه كما فعلت مع إبنه. لقد رأتهما متشابهين الآن في الضعف كما لم ترهما قط من قبل. ولكنها

عادت فأرغمت نفسها على أن الأمان الموجود بين ذراعيها وفي حبها، هو آخر شيء يريده غراي.

وسمعته يقول عابساً: «لا يمكن أن تستمر الأمور على هذا النحو. فقد كنت أعتقد أن روبي قد ابتدأ يستقر، ويتقبلني أباً له. ولكنه الآن... يريدك أنت في حياته اكثر مما يريدني أنا.»

وخفق قلب سارة، لأجله، ألماً وشعوراً بالذنب. وقالت: «إنه ما زال صغيراً جداً. ولا تنس أنه لم يتعود على عشرة الرجال. فقد نشأ بين النساء، كما أن أمه...»

قاطعها: «لقد علمته امه منذ ولادته ان يكرهني ويخافني... وأنا لم أعرف كيف أصلح الأمور. كنت خائفاً من ان اثقل عليه بمشاعري ومظاهر حبي له، وهكذا تراجعت... راجياً ان يتوجه نحوي في النهاية. ولكن، بدلاً من ذلك...»

وحاولت سارة التسرية عنه بقولها: «إنه في حاجة إلى وقت ليستطيع التكيف... ليتعود عليك أكثر.»

ولوى غراي شفتيه قائلاً: «أحقاً؟ أظن أننا، نحن الاثنين، نعلم أن هذا غير صحيح. ليس في إمكاني أن أنزع من ذهنه كل ما لقنته إياه أمه. إن روبي لن...»

وسكت وهو يهز رأسه، تاركاً سارة تقول بلطف: «إنك مخطىء في هذا، أظنه يحبك فعلاً، ولكنه مازال صغيراً جداً ومشوش الذهن، وعليك أن تتذكر أنه مازال يعتقد أنك لا تحبه.»

فقال غراي بخشونة: «لا أحبه؟ إنني طبعاً أحبه. إنه ولدي... إبني.»

فقالت سارة بحزن: «ليس كل الآباء يحبون أولادهم. إن زوجتك... أمه...»

وأدركت سارة أنه يحب إبنه فعلاً، وتألمت عطفاً عليه، ولكنه لم يستطع أن يظهر حبه هذا، لم يستطع أن يظهر لروبي كم يعني بالنسبة إليه، ولهذا بقي منعزلاً عن الصبي الصغير خائفاً من أنه عندما يظهر لروبي مبلغ اهتمامه به، سيفلت منه عقال مشاعره ليكتسح الصبي بزخم من الحب لا يريده الصبي.

وقالت تقترح عليه: «ربما من الأفضل أن يرى روبي مقدار حبك له، بدلاً من بقائك منعزلاً عنه.»

ولكن غراي هز رأسه على الفور: «لقد سبق وأخبرتك بأنه لا يريد حبي. أتعلمين ماذا أبلغ الشرطة حين عثروا عليه؟ قال لهم إنه يكرهني وإنه يريد أن يكون معك أنت. إنه لا يريد أن يبقى معي لأنني طردتك، قال إنه يتمنى لو كنت أنا الذي مات وليس أمه.»

وخنقتها المشاعر مما جعل صوتها يبدو متحشرجاً وهي تقول: «إنه ولد صغير، وهذا كل شيء. لقد تعلق بي لأنني إمرأة، فقد نشأ بين النساء، والنساء يسهل عليهن إبداء عواطفهن والتخلي عن تحفظهن.»

فقال وهو يرمقها بنظرة ذات معنى: «هل يفعلن ذلك حقاً؟»

وتصاعد الدم إلى وجهها لدى نظرته تلك التي ذكرتها إلى أيّ حد تخلت هي معه عن تحفظها. فهي لم تتصور مطلقاً أنها يمكن أن تتصرف بذلك الشكل، وترتكب مثل ذلك الخطأ. وسرت رجفة في أوصالها. فقد استماتت في

محاولة محو ذكرى ما حدث، من ذاكرتها. أن تنسى انه حصل فعلاً، إذ كانت تعلم أن غراي لا بد قد نفى ذكرى تلك الليلة من ذهنه، وأنه قد اعتبر ان ما فعله معها، لم يكن إلا تنفيساً للغضب لعجزه عن المشاركة في التفتيش عن ولده، وايضاً لكي ينسى مخاوفه عليه. ولكي يشغل افكاره بأي شيء، عن التفكير في ما يجري.

وقالت: «من الأفضل ان اصعد لأتفقد روبي.» وكانت ترتجف وهي تقول هذا، إذ كانت تدرك انها انما كانت تتخذ تفقد روبي ذريعة لكي تهرب من امامه، كما ادركت من النظرة التي بدت في عينيه، أنه أدرك ذلك هو أيضاً.

الفصل التاسع

«أريد أن أتحدث معك قليلاً.»

توترت اعصاب سارة لسماعها هذه الكلمات المقتضبة، ووضعت فنجان القهوة من يدها والذي كانت قد سبق ورفعته إلى شفتيها.

كانت الساعة الثامنة، وكانت قد فرغت لتوها، من وضع روبي في فراشه. وكانت على وشك القول لغراي إن الوقت قد حان لذهابها.

حتى الآن، كان روبي قد تجاوز محنته بسرعة مدهشة. لقد استيقظ من نومه أثناء العصر، ومع أنه لم يذكر شيئاً عما حدث، وبقي متعلقاً بها جسدياً وعاطفياً، إلا أنها استطاعت أن تحقق معه برقة عن السبب الذي ألجاه إلى الهرب.

وأخبرها هو بما سبق وأخبر به الشرطة من أنه سمع جدالها مع غراي، وصمم على أنه، إذا لم تعد إلى البيت، فإنه لن يبقى فيه مع أبيه بدونها. وعند ذلك أخبرته، بهدوء، عن مبلغ حب أبيه له وقلقه لأجله. وأخبرته، أيضاً، أن الكبار يتشاجرون أحياناً مع بعضهم البعض. وبدا عليه وكأنه تقبل ما قالته له، مع أنها لم تستطع أن تفعل شيئاً إزاء تجنبه أي نوع من الاتصال بأبيه.

والآن، ها هوذا غراي يخبرها باقتضاب: «إن روبي بحاجة إليك هنا اكثر مما هو بحاجة إليّ أنا. إنني أعلم أنك سبق ورفضت السكن في هذا المنزل، ولكنني أتساءل عما

إذا كان في إمكانك أن تراجعي التفكير في قرارك هذا، وتنتقلي للسكن معنا هنا.»

ماذا في استطاعتها أن تقول؟ وأرادت أن ترفض، ولكنها أدركت أنه لم يكن في حالة تسمح له بالإستماع إليها. وبالنسبة إلى تذكيرها له بأنهما سبق واتفقا على أن يبحث عن امرأة أخرى للعناية بروبي... هل في إمكانها أن تفعل ذلك الآن؟

وكالعادة، أفسد عليها قلبها الرقيق كل شيء... وإلى جانب هذا، إذا شاءت أن تكون صريحة مع نفسها، أليست ميولها، على الأكثر، بجانب البقاء هنا؟ حتى ولو كان هذا يعني زيادة تخبطها في الشرك الذي وقعت فيه؟ أهذا ما تريده حقاً؟ لقد سبق ومنحت عاطفتها وحنانها إلى روبي، كما منحت غاري الشعور نفسه... كيف سيكون في إمكانها العيش معه تحت سقف واحد، الآن، بعد الذي حدث بينهما؟ ولكن بالنسبة إلى مصلحة روبي، هل يمكنها أن ترفض؟

وتنفست بعمق وهي تبعد مشاعرها الخاصة جانباً، لتقول لنفسها ان مصلحة روبي هي قبل كل شيء.

وسمعت غراي يقول بجفاء: «إنني لا أريد أن اقوم بأي ضغط عاطفي عليك. ولكن، لأجل روبي...»

قالت سارة: «سامكث هنا لأجل مصلحة روبي. ولكن، هنالك شرط، وهو: يجب أن تخصص وقتاً لروبي... وقتاً يسمح لك بمعرفته كما يسمح له بمعرفتك.»

وأراد أن يرد عليها ولكنها لم تسمح له بذلك. كانت تريد أن تدلي برأيها الآن قبل أن تفقد شجاعتها وقدرتها على أن

تجعله يرى أهمية ردم الهوة بينه وبين روبي، وبسرعة.

ثم تابعت: «إنني أعرف أنك ستتذرّع بأشغالك الكثيرة وأن ليس في استطاعتك منحه وقتاً تختصره من العمل، ولكن هذا، بالضبط، ما عليك القيام به. يجب أن يكون اهتمامك موجهاً لروبي قبل أي شيء آخر. وهذا ينطبق علينا، نحن الاثنين.»

وساد صمت متوتر، وكانت هي تحبس أنفاسها، تخشى أن ينكر حقيقة ما كانت تقول، ويرفض التماسها هذا، ولكنها شعرت بالإرتياح وهو يقول بصوت خشن: «هل أفهم من هذا أنني إذا لم أقبل بهذا الشرط، فإنك سترفضين المكوث هنا؟»

وفكرت في أن تجيب بالإيجاب، ولكن ضميرها لم يطعها... وهكذا هزت رأسها نفياً وهي تقول: «كلا. ليس بإمكاني فعل ذلك، ولكنك يجب أن تقدر الآن أهمية قيامك بتوثيق علاقتك مع روبي، والطريقة الوحيدة لذلك، هي أن تمضي مزيداً من الوقت معه. ألا ترى أنه لا يكفي أن تخبرني بأنك تحبه؟ يجب أن يلمس روبي منك هذا الحب، يجب أن تتمكن من اكتساب ثقته.»

وسادت فترة طويلة من الصمت، سمعته بعدها، يقول مكرهاً: «حسناً جداً، إذن. عليّ أن اذهب إلى المكتب غداً لأجل مشكلة أمر أو أمرين... ولكن هذا بالنسبة إلى الغد فقط، وأي عمل عاجل يظهر فجأة دون توقع، فأظن أنه بإمكاني دوماً التعامل بشأنه من هنا.»

وكان غراي عند كلمته، ومضى أسبوع تقريباً على الهلع الذي سببه لهما روبي، بهربه. لتجد سارة نفسها تحبس

أنفاسها ابتهاجاً ذات صباح، عندما وجه روبي سؤالاً ما إلى أبيه بدلاً من توجيهه إليها كالعادة.

صحيح أنه كان سؤالاً بسيطاً عن الكيفية التي سيمضيان بها هذا النهار، ولكنه كان اختراقاً لمقاطعته لأبيه، اعترافاً واضحاً من روبي بأن أباه موجود وله دور في حياته، وأدركت من نظرة سريعة إلى وجه غراي أنه انتبه هو أيضاً إلى ذلك.

وفي صباح اليوم التالي، وعندما نزلت إلى الطابق الأسفل ورأت روبي يسأل أباه عما إذا كان في إمكانهم أن يتناولوا طعام الغداء في مطعم ماكدونالد، اكتسحها شعور بالوحشة جعل الدمع يتدفق من عينيها، وهي تعترف لنفسها بأنها، إذا لم تستطع أن تحصل على ولد من غراي، فربما لن يكون لها ولد على الإطلاق، ذلك أنها لن تحب رجلاً أبداً كما تحب غراي، والتفكير في أن تسمح بأن يحدث بينها وبين رجل آخر، نفس ما حدث بينها وبين غراي، هذا التفكير إنما هو انتهاك لحرمة الحب، وذلك رغم تأكدها بأن هذا لا يعني، بالنسبة إلى غراي نفسه، شيئاً.

كانت قد صممت على أن لا تدع شخصاً سواها يعرف ما كلفها نبذ مشاعرها جانباً، لكي تمكث مع غراي تحت سقف واحد وهي تلاحظ بدقة الطريقة التي يحاول بها، دوماً، تجنب الاقتراب منها، الطريقة التي كان يتجنب بها حتى النظر إليها... كما لو كان... كما لو كان قد امتلأ اشمئزازاً وحرجاً مما حدث بينهما. حتى أنه أصبح يرى وجودها عبئاً عليه احتماله في سبيل مصلحة روبي.

في بعض الأيام، كان توتر الأعصاب يبلغ بها منتهاه،

وكان احساسها بوجوده يتملك مشاعرها، فتشعر بالشوق إليه يرهق نفسها إلى حد لم تكن تعرف كيف سيمكنها احتماله. ولكنها، مع هذا،كانت تتمكن من ذلك بطريقة ما... وذلك بتذكير نفسها بسبب وجودها هنا، وأهمية ظهورهما معاً، أمام روبي، بانسجام تام، وتأثير ذلك على استقراره النفسي.

وفي نفس الوقت، كانت تدرك مبلغ الصعوبة التي يجدها غراي في هذه الأشياء. كان النظر في عينيه وهو يراقب ابنه روبي دون انتباه منه إلى مراقبتها له هو نفسه، كان هذا يبعث الدموع في عينيها تأثراً له وعطفاً عليه. كيف أمكنها ان تشك في حبه لإبنه يوماً؟

فكانت، عند ذاك، تتمنى لو أن عندها قوة خارقة تهدم بها تلك الحواجز التي تقوم بينهما.

لقد كان روبي صبياً عاطفياً بالطبيعة، ولكن قابليته في أن يضع ثقته في أبيه، قد أفسدتها أمه، مما جعله إذا ما اقترب خطوة إلى الأمام في علاقته بأبيه، يعود فيرجع خطوتين إلى الخلف، كما حدث يوم أخذهما غراي في رحلة بالسيارة، ثم إلى الموقف الريفي لكي ينزلا ويسيرا على الأقدام، عند ذلك رفض روبي أن يسير في محاذاة أبيه، طالباً أن يسير وسارة معاً على أن يسير غراي وحده خلفهما.

ولكن سارة طمأنت نفسها إلى أنهما يسيران في طريق النجاح. ففي الليلة الماضية، قرأ غراي لروبي حكاية قبل النوم، والآن كان روبي قد ابتدأ، في الواقع، يتحدث إلى أبيه مباشرة.

فلا عجب إذن، أن يبدو غراي على هذه الدرجة من التوتر. فإن حبه لروبي إلى هذه الدرجة، لا بد قد جعله يعاني من ضغط لا يحتمل.

ومع هذا، فقد كانت مقتنعة تماماً، أنه مع الوقت سيتحول روبي نحو أبيه، وسيتغلب على عدم الثقة به، والمغروس في أعماقه، ليدرك مقدار حب أبيه له، وعندما يحدث هذا، سيكون دورها هي قد انتهى، ولن يعود ثمة ضرورة لوجودها، فماذا سيكون شعورها عند ذاك؟ وأي إحساس سيتملكها عندما يحين وقت رحيلها؟

كان شعورها يزداد بالحزن والأسى يوماً بعد يوم، ولم تجد وسيلة لتخفيف آلامها سوى في استسلامها إلى دموع الوحدة والوحشة التي كانت تذرفها كل ليلة، أثناء رقادها. لقد كانت تعذبها آلام الحب والشوق التي لم تكن تتوقف، واللهفة إلى النظر في عيني غراي لترى في أعماقهما انعكاس كل ما يحتويه قلبها.

مثل هذه الأحلام الغبية المستحيلة، ما الذي جعلها تلتصق بها بكل هذه الحماقة، في الوقت الذي كانت تعرف فيه أنها تزيد في آلامها ويأسها؟

وفي تلك الليلة، بعد أن استحم روبي ووضعته سارة في الفراش، ثم قبلته متمنية له ليلة سعيدة، تعلق بها بشدة وقال لها: «أتمنى لو كنت أمي، يا سارة.»

وملأت الدموع عينيها، فأشاحت بوجهها لكي لا يرى دموعها هذه. ولكن، لتتجمّد في مكانها، ذلك أن غراي كان واقفاً عند باب الغرفة بالضبط، وعلمت هي مما بدا على ملامحه، أنه قد سمع ما قاله إبنه.

ومضت لحظة وقف فيها ينظر إليها، ثم وبصمت، ودون أية كلمة، استدار على عقبيه، ثم مشى مبتعداً.

وسألها روبي مثرثراً: «هل سيأتي بابا ليقرأ لي الحكاية، هذه الليلة؟»

ولكن، للمرة الأولى، لم تفلح هذه البادرة التي جاءت أخيراً، لتبشر في قبوله بدور أبيه في حياته، في رفع روحها المعنوية.

وردت عليه بلهجة آلية: «أظن ذلك.» ثم نهضت من مجلسها بجانب السرير متوجهة نحو الباب.

عندما نزلت إلى الطابق الأسفل، لم تجد في المطبخ أثراً لغراي. ولكن، عندما عادت إلى الردهة، رأت نوراً يتسرب من أسفل غرفة المكتب.

قرعت الباب، وعندما فتحه غراي، قالت له بسرعة، دون أن تستطيع النظر في وجهه مباشرة: «إن روبي ينتظرك لكي تقرأ له الحكاية.»

ومشت مبتعدة دون انتظار جوابه، شاعرة بالحرج، وهي تتصور ماهية شعوره وهو يسمع تمني روبي بأن تكون هي أمه.

وكانت هي تعرف مسبقاً، مبلغ عدم اهتمامه هو بوجودها في حياته، وأنه يحتمل وجودها في منزله لأجل مصلحة إبنه فقط. وكانت تلاحظ دوماً الطريقة التي يتصرف بها نحوها في أغلب الأحيان، مما ينفي أن تكون تصوراتها تلك غير حقيقة.

ذلك أنه، كلما اقتربت منه، بالصدفة، إلى درجة غير عادية، كان يتراجع إلى الخلف بسرعة مبتعداً عنها،

محتفظاً، على الدوام، بمسافة بينهما جسدياً، كما ابتعد عنها، عاطفياً، بعد ما حدث بينهما.

وسمعته يصعد السلم إلى غرفة روبي، ولكنها بقيت في المطبخ، فقد كانت تتوقع أنه، عندما ينزل، سيتوجه إلى غرفة المكتب مرة أخرى. ذلك أنهما قد يكونان يعيشان في منزل واحد، ولكن ما ان يصبح روبي في فراشه، حتى ينعزل كل منهما عن الآخر، تماماً، فهي إما في المطبخ، وإما في غرفة نومها. أما غراي، فهو يعمل، عادة، في غرفة مكتبه.

وكانت تتشاغل بقراءة مقال في صحيفة، عندما سمعته يهبط السلم. وتوتر جسدها متوقعة أن تسمع كالعادة، صوت باب غرفة المكتب يفتح، لكي يغلق مرة أخرى، مما يرمز إلى نفيه لها من حياته، ليضع الحواجز بينهما.

وفي الواقع، كانت من الثقة في أنه سيذهب إلى غرفة المكتب، إلى حد أنها اجفلت مذعورة وهي تراه يدخل المطبخ ومن شدة دهشتها وقفت تحدق فيه دون أن تتمكن من النطق.

وقال لها فجأة: «إنني... إنني مسافر لأيام قليلة. وذلك في... في عمل... شيء ضروري.»

ماذا في إمكانها أن تقول؟ وماذا تصنع؟ هل تذكره بوعده عندما وافقت على العيش في منزله... تذكره بأهمية اعطائه إبنه وقته واهتمامه؟

وفتحت فمها لتقول له ذلك، ولكنها لم تفعل، فقد كانت تعرف مسبقاً أنها إنما تضيع وقتها هباء. وتساءلت بحزن وشيء من الغضب، كيف يستطيع أن يفعل هذا؟ كيف يمكنه

أن يدير ظهره إلى روبي في الوقت الذي ابتدأ فيه الصغير يفقد خوفه منه؟

وقالت: «هل هذا ضروري حقا؟» كان هذا هو كل ما استطاعت قوله، وقد كشف توتر صوتها عن كل ما لم تستطع قوله.

واحمرت وجنتاه قليلاً، وهو يجيبها: «نعم. إنه كذلك.» ولكنه تجنب النظر في وجهها مما دعاها إلى الظن بأنه يخفي عنها شيئاً... وأنه ليس صادقاً معها تماماً.

وعاد يقول: «سأرحل مبكراً صباح الغد.»

وضغطت شفتيها، ولكن قبل أن تقول شيئاً، أذهلها بقوله: «لقد سبق وشرحت الأمر لروبي. وأظنه يفهم، وسأغيب لمدة شهر تقريباً.»

شهر؟ وكبحت الصدمة والأسى اللتين شعرت بهما، كما منعها الذهول من الاحتجاج وهو يتركها وروبي وحدهما طيلة ذلك الوقت.

بعد أن جهزت نفسها للنوم، في تلك الليلة، وجدت سارة نفسها تتمنى أن تفهم، هي أيضاً، سبب غيابه كما كان قد ادعى أن روبي قد فهم ذلك. كان قد وعدها بأن يجعل اهتمامه الأول لروبي قبل كل شيء، وأنه سيركز اهتمامه على أن يبني ثقة الصبي به... وكانت هي تشعر، على الدوام، أنه من الرجال الذين لا يرجعون في كلمتهم، خصوصاً لأجل ربح مادي، كانت تعرف مبلغ شعوره بالمسؤولية نحو القوى العاملة عنده، ولكن في حالة كهذه، لا بد أن يأتي روبي أولاً، في قائمة اهتماماته.

إنما، يعلن، بهدوء، أنه سيغيب شهراً كاملاً... ولكن كلا،

فهو لم يكن هادئاً... لقد لاحظت أنه كان يبدو في أشد حالات التوتر. ولكن لماذا؟ لماذا يترك روبي في هذا الوقت الذي ابتدأ فيه الصبي يمد يده إليه؟

وتمنت لو كانت تملك من الشجاعة والثقة بالنفس ما امكنها من أجل أن توجه إليه هذه الأسئلة... ولكنها لم تفعل... حتى لأجل روبي بالرغم من شدة حبها للصبي الصغير.

وغصت بريقها وهي تستعيد تلك اللحظة المؤلمة عندما قال لها روبي انه يتمنى لو كانت هي أمه، واللحظة الأكثر ايلاماً عندما أشاحت بوجهها لترى غراي وتعلم أنه قد سمع ما قاله إبنه.

هل كان رحيله بسبب ذلك... لأنه خاف منها أن..؟ انها ماذا؟ أن تحاول استغلال تعلق روبي بها لكي...؟

وامتلأت عيناها بالدموع. كلا، من المستحيل أن يكون رأيه فيها سيئاً إلى هذا الحد. ولكن حقيقة أنها لم تات قط على ذكر ما حدث بينهما يوم اختفاء روبي، لا بد أن تجعله يفهم أنها مدركة تماماً تفاهة اعتباره هو لما حدث... أو قلة رغبته في أن تذكره به.

وعندما استغرقت أخيراً، في نوم مرهق، كان على وجهها آثار الدموع، بينما كان قلبها يتألم من حبها لغراي، ولعلمها أنه لن يبادلها هذا الحب أبداً.

وعندما نزلت في الصباح، إلى الطابق الأسفل، كان هو قد رحل. وكان ثمة رسالة مختصرة تركها لها، يعتذر فيها لرحيله المفاجيء، ويشكرها لكل ما فعلته وتفعله لأجل روبي.

وكان ثمة رسالة صغيرة لروبي كذلك. كلمات قليلة مؤثرة لا يمكن أن يكون قد كتبها غراي الذي عرفته سابقاً.

وعلى مائدة الفطور، حرصت، رغم ما تعانيه من ألم، على الاتيان على سيرة غراي أثناء الحديث، مصممة على السير قدماً في تقوية العلاقة التي كانت تنمو، شيئاً فشيئاً، بين الأب وابنه.

ونالت مكافأتها آخر النهار عندما هتف روبي: «اتمنى لو كان بابا هنا، هل أنت أيضاً تتمنين ذلك يا سارة؟»

واغتصبت ابتسامة دون أن تقول شيئاً. وهل هناك شيء يقال يمكن أن يفهمه روبي الصغير؟

كان الذعر يتملكها كلما فكرت في أن غراي ربما تكهن بشعورها نحوه. وكانت متأكدة من أن سالي وروس يعلمان بذلك رغم أنه لم يات أي منهما على ذكر هذا.

ومر أسبوع دون أية كلمة من غراي. ولم يكن هذا يعني أنها كانت قد توقعت منه الاتصال بها، ولكن، كان في إمكانه أن يرسل بطاقة إلى روبي من أي مكان يصل إليه لقضاء أعماله الهامة تلك.

لم تستطع النوم بشكل جيد في الليالي التي مرت بها، وفي النهار كانت تجر نفسها جراً وقد استولى عليها الخمول والتعاسة، مرغمة نفسها على اداء الاعمال المعتادة لأجل روبي، وقد عرفت أثر وجود غراي في المنزل في بعث شعور الراحة والسلوان في نفسها. رغم انها، في نفس الوقت كانت تعاني من عذاب محاولاته الدائمة تجنب الاقتراب منها حتى أنه كان أحياناً، لا يحتمل أن يكون موجوداً معها في غرفة واحدة.

كانت قد وضعت روبي في فراشه، وكان المنزل نظيفاً. ولم يكن ثمة شيء تفعله... لم يكن ثمة شيء يشغلها سوى كتاب كانت قد سبق واشترته عندما خرجت تتسوق، وفتحت التلفزيون في غرفة الجلوس حيث جلست تراقبه، محدثة نفسها بأنها ستذهب إلى فراشها حالما تنتهي نشرة الأخبار. ولكن قوة الشعور بالوحشة واليأس كان قد ترك تأثيره على جسدها، مما جعلها تغط في نوم مضطرب حيث كانت تجلس، وذلك قبل أن يحين برنامج الأخبار بمدة طويلة.

وبعد ذلك بنصف ساعة، كان غراي يدخل المنزل، ليجدها نائمة على المقعد في غرفة الجلوس، وقد بدت بوجهها الخالي من الزينة وشعرها الذي رفعته بشكل ذيل الحصان، فتاة صغيرة أكثر منها إمرأة.

واكتسحته موجة عارمة من الشوق وهو يقف ينظر إليها. لقد ترك المنزل لأنه لم يعد في وسعه احتمال عذاب العيش بالقرب منها، وقد عاد الآن لأنه لم يعد في وسعه احتمال عذاب العيش بعيداً عنها.

ألم ومعاناة في بقائه، وألم ومعاناة في بعاده. كما أخذ يحدث نفسه.

لم يكن ثمة علاج لحبه هذا لها، كما أفصحت هي عن هذا بجلاء في ذلك اليوم الذي فقد فيه أعصابه وسيطرته على نفسه ليندفع مع حبه ورغبته بشكل غبي، بعد أن دفعه إلى الاستسلام إلى مشاعره، خوفه ذاك على روبي. إنه لن يغفر لنفسه هذا الخطأ ابداً... أبداً.

وكان على وشك أن يبتعد، عندما تحركت هي في مقعدها، وسرعان ما فتحت عينيها.

ولم تستطع أن تصدق عينيها وهي تهتف: «غراي.» وأخذ قلبها يخفق بعنف وسرعة فائقين وقد تهدج صوتها بالمشاعر وهي تحدق فيه بشوق ودهشة. تحاول أن تستوعب حقيقة أنه موجود أمامها حقاً وأن ذلك ليس من تصوراتها الخيالية.

كم من المرات جلست هنا، في الليالي، تتخيله داخلاً عليها فجأة، ليأخذها بين ذراعيه. و... وعادت بأفكارها إلى الواقع بسرعة لتقول: «ولكنك كنت قد قلت إنك ستغيب شهراً؟»

فأجاب بصوت متوتر وكأنه يبذل جهداً في ضبط اعصابه: «هذا صحيح.»

وأخذت هي تتأمله وقد أذهلها نحوله البادي على وجهه، ونظراته الزائغة والتي هي، عادة، قوية ثاقبة.

وعاد يقول بمرارة وكأنه يعترف بفشله: «لم استطع البقاء مدة اطول من ذلك.»

ومنعها التوتر البادي عليه من أن تجيبَ بشيء، وما لبثت أن انتبهت إلى ما كان يقوله، فقالت بصوت ينضح سروراً وعطفاً: «هل افتقدت روبي؟»

«روبي؟» وحملق فيها، ثم قال متأوهاً: «نعم، نعم، لقد افتقدت روبي، ولكن ليس بمقدار العشر مما افتقدتك أنت. تباً، يا سارة، ما كان لي أن أذكر لك هذا، ما كان لي أن احملك متاعبي بعد كل تلك المتاعب التي سبق وحملتك اياها. ولكن حضوري في هذا الوقت، ورؤيتي لك مضطجعة هكذا... مما ذكرني بشعوري وأنا أحملك بين ذراعي... لقد سبق وأقسمت، بعد تجربتي مع أنجيلا، بأن لا اقترب من

إمرأة، بعد ذلك... وأن لا أعرض نفسي لوضع تسيطر فيه عليّ المشاعر، وأن من الأفضل أن أعيش وحيداً، من أن أجازف ثانية بإدخال امرأة اخرى في حياتي قد يحدث أن تغير رأيها بي وتتركني. وقد كنت أظن أنني نجحت في ذلك.

لقد حدثت نفسي بأنني أصبحت اكثر سعادة في حياتي مما لو كنت بقيت متزوجاً من تلك المرأة التي لم أكن أحبها ولا أحترمها، رغم أنني اعتقدت ذات يوم، بأنني أحببتها.

ثم قابلتك... ومن اللحظة الأولى التي رأيتك فيها جالسة هناك تحت شجرة الصفصاف، تحتضنين روبي... إبني... وأنتما الاثنين، تحدقان بي بخوف وكراهية، من تلك اللحظة، عرفت أن كل ما سبق وحدثت به نفسي، وكل قانون وضعته لحياتي، كل هذا كان هراء لا يعني شيئاً.

حتى عندما دفعتني رغبة ملحة في أن أمسك بك فقط... لم يسبق أن شعرت من قبل، بمثل شعوري ذاك... مطلقاً. لقد حدثت نفسي، عند ذلك، أن هذا مجرد شعور شاذ هو نتيجة المشكلات التي كنت اعانيها بالنسبة إلى روبي. ولكنني كنت أعلم، في اعماقي، أنني إنما كنت احاول جاهداً، أن اتعامى عن الحقيقة، لقد علمت عند ذاك، أن ما شعرت به نحوك كان بعيداً كل البعد عن ذلك الشعور الفج الذي كنت أشعر به نحو والدة روبي.

وقبل أن يهرب روبي مرة أخرى، بمدة طويلة أخذت أحاول خداع نفسي. كنت أعلم أنني أحبك، وأنني سابقى على حبك هذا بقية حياتي. وقد كرهت نفسي لهذا الضعف، وأحياناً كنت أشعر نحوك بالكراهية لتسببك في ذلك. لا

يمكنني أن أسألك الصفح لما فعلته... فهي ذكرياتي الثمينة تلك... كان كل ما أردته، هو أن أمسك بك، أن ألمسك... إنني أقسم بأنه لم يكن في نيتي قط أن أذهب أبعد من ذلك. ولكن، عندما أصبحت بين ذراعيّ...»

وتملكته رجفة، وكذلك سارة التي كانت تستمع إليه، طيلة الوقت، بصمت، لا تكاد تصدق ما يقول، محدثة نفسها بأنها لعلها تتخيل كل هذا الذي يقوله.

وتابع قائلاً: «لقد رحلت بعيداً لأجل مصلحة روبي، بعد أن اخترعت قصة ذلك العمل الوهمي الذي لا يحتمل الإرجاء لأنني كنت أعلم أنني إذا بقيت هنا، فانا ساجن حتماً، ولكن الأمور لم تتحسن بابتعادي ذاك. فقد كانت أفكاري مشغولة بك ليلاً نهاراً...»

وسكت فجأة، ثم عاد يقول بلهجة متأثرة: «ما كان ينبغي أن أحدثك بأي من هذا الكلام. ولم يسبق أن فكرت قط بذلك، ذلك لأنني قد قررت أن أعود وأطلب منك ترك العمل، بسبب ما لاحظته من تعلق روبي الشديد بك.» وضحك بمرارة وهو يستطرد: «حتى أنني لم أشأ أن اطلعك على الحقيقة، وهكذا كنت ساتخذ من روبي ذريعة لذلك، مع علمي بمبلغ حبه لك وحاجته إليك.

لقد سمعته وهو يخبرك بانه يتمنى لو كنت أمه. حسناً إن رغبته تلك ليست باكثر من رغبتي أنا. انني اتمنى لو كنت أنت أمه، زوجتي، حبيبتي، إمرأتي. أتمنى أن انسى الطريقة التي فتحت لي فيها ذراعيك عندما كنت غارقاً في التعاسة، يا سارة...»

واغرورقت عيناها بالدموع وهي تسمع صوته المعذب.

وكانت تسير نحوه عندما نطق باسمها مرة ثانية، إنما بلهجة مغايرة، هذه المرة، تحمل معنى الحدة والرفض، مما جعلها تتوقف وهي تحدق في وجهه المتوتر الملامح، وكان يقول متوسلاً: «كلا... لا تقتربي مني أكثر من ذلك، وإلا...»

ولكنها تسلحت بكل ما تملك من شجاعة لتعاود التقدم نحوه، متجاهلة كل مخاوفها واعتباراتها السابقة بعد أن سمعت كل ما قاله.

تقدمت نحوه بحزم وهي تسأله بصوت مرتجف: «وإلا ماذا... يا غراي؟»

قال متنهداً: «إنني...» وسكت متأوهاً وهو يفتح لها ذراعيه.

وهمس وهو يمسك وجهها بين يديه وينظر في عينيها: «إنني أريدك... أريدك... ولكن ليس قبل أن أتمكن من اقناعك بأني أحبك... ليس قبل أن تخبريني بأنك صفحت عني لمعاملتي السيئة لك... ليس قبل أن تقنعيني بأن هذا ليس حلماً، وأنني لن استيقظ لأرى نفسي بعيداً عنك اميالاً، وأرى ذراعيّ خاليتين منك. اخبريني إن كنت تحبينني يا سارة... قولي إنك لا تتجاوبين معي لمجرد شعورك بالشفقة والأسف لأجلي. إنني أدرك مقدار ما يعمر به فؤادك من العطف والحنان. وكيف تكرهين أن ترى الآخرين يتألمون.»

واهتز صوتها وهي تقول: «إنني أحبك.» وسرعان ما استحالت كل مخاوفها إلى بهجة وطمأنينة وهو يحتضنها، فتسمع خفقان قلبه متجاوباً مع خفقات قلبها.

وكان الواحد منهما بين ذراعي الآخر، عندما ارتفع صوت روبي يسأل بفضول: «بابا، لماذا تحتضن سارة؟»

أجابه غراي وهو يبعدها عنه قليلاً ليحدق في أعماق عينيها: «لماذا؟ لأنها ستتزوجني وتكون أمك. هذا هو السبب.» وأضاف بلهجة جادة ونظراته ما زالت متعلقة بنظراتها: «هذا على الأقل ما اتمناه.»

كان في عينيه من القلق، من الشكوك، من العذاب والخوف، ما نكرها بروبي في أسوأ حالاته النفسية. وانحنت تأخذ بيد روبي، وهي تطمئنه بصوت ينضح بالحب: «إن الزواج منك هو أمنيتي، يا غراي. إنما هنالك شرط واحد.»

ورأت التوتر يسود ملامحه، وأدركت ما قد يكون فكر فيه. لقد سبق وفرضت والدة روبي شروطاً عليه، ولكن والدة روبي هي الآن من ماضٍ تريد هي أن تقصيه من حياتهما.

وسألها بخشونة: «وما هو هذا الشرط؟»

وهمست متجاهلة التوتر الذي بدا عليه: «لا أريد أن يبقى روبي إبناً وحيداً. إنني أريدك. أريد حبك، وكذلك أريد أولادك، يا غراي.»

تنهد بارتياح، وأجاب: «لقد سبق وحصلت على اثنين، أنا وروبي، أما الثالث، فأنا اوافقك على هذا. فإن روبي في حاجة إلى إخوة وأخوات. على كل حال، ما يحتاجه روبي حالياً، قبل أي شيء آخر، هو أن يرقد في فراشه وينام بسرعة.»

ورمقها بنظرة جعلتها تضحك وقد احمر وجهها، ولكنها لم تمانع عندما حمل غراي إبنه بين ذراعيه وتوجه به نحو الباب.

وعند الباب، توقف لحظة يشير إليها بفمه من فوق رأس روبي «أحبك.».

تمـــت

www.elromancia.com